توم كروز في شقة العجوزة

ما لن تجده في الأكثر قراءة

محمد هشام عبيه

obeikandl.com

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية

دار دلتا للنشر

رئيس مجلس الإدارة

المحاسب

أحمد التلاوى

الناشر

سليمان القلشى

مستشار النشر

أحمد سويلم

الطبعة الأولى

الكتاب : توم كروز فى شقة العجوزة

المؤلف : محمد هشام عبيه

تصنيف الكتاب : مقالات

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٨٠٥ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي : 9 - 178 - 776 - 977 - 978

العنوان : ٧ شارع الموسيقار على إسماعيل الدق

التليفون : ٣٣٣٧٨٣١٩ - ٣٣٣٨٧٠٣٩

email : elyoumnew@gamil.com

obeikandl.com

... أو لماذا تقرأ هذا الكتاب؟

نشـرت معظـم، إن لم يكـن كل المقـالات الـتي يضمهـا هـذا الكتـاب علـى الإنترنـت، علـى مـدار عـام أو أزيـد قليـلا، وكعـادة سـكان العـالم الافتراضـي، كنـت أبحـث عـن هـذه المقالات ملهوفًا في تلـك الخانــة الذهبيــة «المقــالات الأكثــر قــراءة»، وفي كل مــرة كنـت أعـود خائبًـا مدحـورًا كمشجع زملكاوي يـرى الأهلـي يحـرز هدفًا في الدقيقـة ٩٦، فـلا المقال أخـد بركـة الأكثـر قـراءة، ولا فـاز بتوصيـة مـن «أولـتراس التشـيير»، مـن نوعيـة «المقـال النـاري الـذي هزهـم مـن جـوه»، ولا «فـلان الفلانـي يضـرب مـن جديـد»، ولم يظفـر حتـى بـ» هههههههههه» طويلـة وممـدودة.

حينهـا، كنـت أتامـل مـا كتبـت، محـاولا تبـين العيـب أوالخطـأ أو «الديفـوه»، ثـم قـررت أن أنشـر كل ذلـك في كتـاب، لعـل أحـدًا يعثـر علـى السـر، ويلهمـني مفتـاح الحـل، أو لعلهـا تضـرب في العالـي، ويتصـدر الكتـاب قائمـة الأكثـر مبيعًـا، فيكـون ذلـك تعويضًـا عـن خسـارة الأكثـر قـراءة، وإن كانـت تجربـتي في هـذا المجـال أو ذاك، توحـي لـي بأنـك- أي نعـم أنـت مـن يقـرأ هـذه السـطور- سـيكون قارئـي المثالـي الوحيـد!

حسـنًا، بعيـد عـن كل مـا سـبق، فـإن ظاهـرة الأكثـر قـراءة و»الاسـتاتيس بتاعـك جـاب كام شـير ولايـك»، تطـور اسـتهلاكي

طبيعي، من المنطقي أن يطول الكتابة أيضًا، فيتم حساب – في أحيان كثيرة – قيمة الكاتب وأهميته التسويقية بعدد «الفلورز» و«الشيرات»، لا بجودة المكتوب، هذا نمط العصر الذي يحوّل كل شيء إلى سلعة، لكنها أيضًا عملية تجارية حسابية بحتة، إذ ما قيمة أن تنشر مقالا لا يقرأه أحد، أو كتابًا لا يقتنيه سوى أسرة المؤلف (شكرا لناشر كتابنا هذا!)، لكن الأكيد أيضا أنه وسط حالة «صرعة الأكثر قراءة» و«التشيير كسبنا كتير»، إنه هناك ما يستحق فعلا أن يكون في الأعلى قراءة؛ لأن المكتوب جيد حقيقة، كما أنه يوجد وسط هذا الزحام، خارج الأضواء، ما يستحق أن يُقرأ ويناقش والتفكير فيما جاء فيه، لكنه فقط يفتقد تلك الخلطة السرية، أو الكيميا أو القبول أو الجماهيرية «الحقيقية أو المصطنعة»، التي تمكّنه من أن يتواجد بين عظماء التشيير وأباطرة الأعلى قراءة.

هل هذا يعني أن صفحات هذا الكتاب هي من هذا النوع العظيم ؟

ما تحرجنيش، لكن الأمانة تستدعي أن أقول لك بأن بعض مقالات هذه الكتاب نافست على مراكز متقدمة في سباق «الأعلى قراءة» ذات يوم، وسأترك لك تخمين أسماء هذه المقالات.

يبقى السؤال المنطقي الأخير، لماذا أقتني كتابًا يضم مقالات سبق نشرها؟ لعدة أسباب: أولها أن كثيرًا من الكتاب – المهمين وأنصاف المهمين وأرباعهم وأثمانهم – عملوها قبل ذلك ف«مجتش عليّ يعني»، وثانيها، أنه حتى ولو كنت

من متابعي مؤلف هذا الكتاب، وتطارد ما يكتبه كما المدمن «ما تضحكنيش أرجوك»، فإنه حتمًا سيكون قد فاتك مقال أو أكثر، وهذه فرصة لأن تعيد قراءة ما قرأته، وتكتشف الجديد، أما ثالثها، فإن الكتاب- أيٍ كتاب - وما يضمه من مقالات - أي مقالات - لايعني إطلاقًا أنها «تجميعة» والسلام، وإنما ستجد في ترتيب الموضوعات، وحشدها المتتالي، وقراءتها معًا، شيئًا مغايرًا ورؤية - أنت نفسك من يصنعها - قد تكون أكثر شمولية وعمقًا، وحتمًا لن تجدها عندما كنت تقرأ هذه المقالات - لو كنت تفعل ذلك حقًا - فرادى.

رابعها وأخيرًا، أن السبب الرئيسي الذي يجعلنا نقرأ هو المتعة، فإن وجدتها ها هنا، فقد فزت أنت وانبسطت أنا، أما إذا «شربت مقلب»، فقد فزت أنا بـ١٠٪ من ثمن النسخة، أما أنت فلابد أنك تعلمت درسًا مهمًّا وهو ألا تقتني- أبدًا- كتابًا يضم مقالات لم تظهر- من قبل- في الأعلى قراءة!

محمد هشام عبيه

العبور- القاهرة

يناير ٢٠١٦

obeikandl.com

ركن الرئيس

obeikandl.com

obeikandl.com

أولتراس السيد الرئيس

متى يجب أن يقلق الرئيس من مؤيديه؟

عندما يتحولون من جمهور إلى أولتراس.

الجمهور يشجّع ويدعّم، والأولتراس يضيف إلى ذلك التشدد والغلظة والعصبية، ولسعة من التطرف في المحبة، التي غالبًا ما تكون تطبيقًا عمليًا للمثل القائل «من الحب ما قتل».

الجمهور في لحظة ما، يفكر ويسأل ويحاول أن يفهم، بينما الأولتراس يتحرك أولا، ثم يأتي السؤال لاحقًا.

الجمهور قابل للانقسام والتشتت في طرق التأييد والمحبة والدعم، وفي هذا نعمة للسياسي؛ لأن ذلك يمكّنه من استخدام أساليب مختلفة، وتنويعات عدة في سبيل استمالة الجمهور، لكن الأولتراس وحدة واحدة نارية وملتهبة، تكسبها كلها أو تخسرها مرة واحدة.

السؤال هنا، هل كان الرئيس السيسي يريد من مؤيديه أن يكونوا من الجمهور أم من الأولتراس؟

بتتبع خطاباته للشعب، منذ أن أصبح في قلب الصورة في نهايات عصر الإخوان البائس، يبدو واضحًا أن السيسي كان يريد أولتراس

obeikandi.com

لا جماهير، وهو يعي جيدًا الفارق بينهما، فكان له ما أراد.

أغلب الظن أنه اعتبر أن اللحظات الحرجة في هذا الزمن «التحضير لإزاحة الإخوان وما بعده»، يحتاج إلى أولتراس، بكل جنونهم وحماسهم المفرط، والأدرينالين الزائد في عروقهم، وإخلاصهم اللانهائي للفكرة أي كانت، فريق، وطن، أو حتى شخص، واستعدادهم لقبول أي أفعال استثنائية أو غير معتادة، طالما أن ذلك يصب في مصلحة ما يؤمنون به.

كان الهدف إذن هنا، ليس صناعة جمهور تقليدي، يفقد حماسه من أول «جول» في مرمى الفريق الذي يشجعه، أو تفتر هتافاته مع ضياع الدقائق دون تعويض، أو يصل إحباطه لدرجة مغادرة الملعب في آخر خمس دقائق من المباراة، رغم أن «الجول بيجي في ثانية».

الهدف إذن كان صناعة أولتراس حقيقي، يبلع الغلط والزلط، قبل أن يقف ليردد الهتافات المزلزلة المؤيدة، يشتعل حماسه مع الضربات المعاكسة، يقف صفًّا واحدًا كلما حاول أحد الأعداء / المنافسين شق الصف، يقرع الطبول، ويشعل الشماريخ، ويصفق للعبة الوحشة قبل الحلوة.

نجحت المهمة إذن، ووقف الأولتراس إلى جانب فريقه المفضل بثباتٍ واضح، لكن من قال يأمن شر الأولتراس حينما ينفلت الزمام؟

في منتصف شهر سبتمبر ٢٠١٥ نظّم عدد من الموظفين مظاهرة ضد قانون الخدمة المدنية، فعلوا ذلك في محيط حديقة الفسطاط،

وهـي المنطقـة الـتي حددهـا محافـظ القاهـرة مـكان للتظاهـر دون الحاجـة للحصـول علـى ترخيـص.

كثـيرون – ومـن بينهـم كاتـب هـذه السـطور– يعتقـدون بـأن قانـون الخدمـة المدنيـة هـذا، بدايـة لتفكيـك الهيـكل البيروقراطـي الإداري لأجهـزة الدولـة، لكـن ذلـك لا يحـرم مـا يرونـه عكـس ذلـك مـن رفضـه، والتعبـير عـن ذلـك بـأي طريقـة «سـلمية»، هكـذا إذن فعـل منظمـو المظاهـرة الرافضـة للقانـون، الجمهـور يتقبـل ذلـك، لكـن الأولـتراس لا يسـتطيعون؛ ولهـذا حـدث أن تظاهـر عـدد مـن المواطـنين / الأولـتراس أمـام رافضـي «الخدمـة المدنيـة»، هـذا حقهـم أيضًـا، لكـن المظاهـرة سـرعان مـا انقلبـت إلى هتافـات أولتراسـية تفـني الآخـر ولا تعتـبره موجـودًا بالأسـاس، إذ كان الهتـاف «لا للمظاهـرات، لا للإرهـاب»، علمًـا بـأن مـن يـردد هـذا الهتـاف، كانـوا يتظاهـرون بدورهـم، أي أنهـم يصمـون الفريـق الآخـر وأنفسـهم بالإرهـاب في وقـت واحـد.

مـن زرع في ذهـن هـؤلاء أن المظاهـرة مـرادف للإرهـاب؟ ومـن دفعهـم للهتـاف المضـاد بمصطلحـات تعتـبر الآخـر إرهابيًـا؟

لعل التفسير موجود في سلوكيات الأولتراس..

هـم جمهـور مخلـص ومحـب ومـن أصحـاب الـدم الحـار، لكنـه لا يـرى أبـدًا سـوى الفريـق الـذي يشـجعه.

الطـرف الآخـر غـير موجـود، أو في أفضـل الأحـوال، علينـا التعامـل باعتبـاره مـن الأعـداء.

هذا نفسه هو ما تم مع حدث لا يقل رعبًا.

مقتل ثمانية من السائحين المكسيكيين، وأربعة من المصريين في قصف بالخطأ من قوات الشرطة والجيش بالواحات البحرية.

هذا حدث ضخم يجب أن تتحرك فيه الدولة بسرعة وذكاء في محاولة لتقليل آثاره المروعة.

الجمهور في هذه الحالة، مهما كان تعاطفه مع الدولة / الرئيس، يدرك أن هناك خطأ ما وقع، وأن مسئولية هذا الخطأ تقع بكل تأكيد على مصر وليس على السائحين المكسيكيين.

لكن الأولتراس – كالعادة – لايرى ذلك.

هكذا خرجت تعليقات تشكّك أولا في وقوع الحادث، رغم أن أول جهة أعلنت عنه هي وزارة الداخلية نفسها، ثم جاء الدور لإنكار أن القتلى سائحون بالأساس، وأنهم ضباط مخابرات من دول معادية، وصولا إلى الاعتراف بكونهم من المكسيك، لكن قتلهم طبيعي في إطار الحفاظ على الأمن القومي.

هذا سلوك أولتراس أصيل، سيظهر مرة ثالثة في أقل من شهر، ضد كل من يرفض النية الواضحة تجاه تعديل مواد الدستور، بما يسمح باستعادة الرئيس لجزء من صلاحياته، نقلها دستور ما بعد ٣٠ يونيو إلى البرلمان المنتخب.

الأولتراس يقول إن تعديل الدستور ضرورة، رغم أن هذا الأولتراس نفسه هو من صوّت بنعم كاسحة على نفس المواد قبل أكثر من عام، الأولتراس هنا لا يراجع أفعاله، وإنما يفعل ما تمليه عليه عقيدته بأن انصر فريقك ظالمًا أو مظلومًا.

الغريب أن أول أولتراس سياسي ظهر مع تقديم الإخوان لمحمد مرسي، باعتباره مرشح الجماعة في انتخابات الرئاسة عام ٢٠١٢.

كان شعار الحملة حينها هو «النهضة»، ولما نال الشعار الكثير من السخرية، استغل الإخوان وجود عدد من قيادات أولتراس الأهلي والزمالك في حملة مرسي أو روّجوا لذلك، من أجل الإعلان عن تأسيس «أولتراس نهضاوي»، الذي كان يقوم بتنفيذ «دخلات» خلال بعض مؤتمرات مرسي، ولقاءاته التليفزيونية، يقول مطلع أحد هذه الدخلات «"نهضاوي وجاي الليلة عشان أقول.. معاك يا مرسي مهما العمر يطول."، يمكنك طبعًا استبدال كلمتي "نهضاوي" و"مرسي" بأي كلمتين أخريين، ولن تجد أي اختلاف في المعنى.

حالة التوحد الأولتراسي هذه مع مرسي، سواء كان الإخوان قد اصطنعوها للإيحاء بأن شعبية مرشحهم الغريب هذا منتشرة بين كل قطاعات الشباب، أو لأن عددًا من الشباب – الأولتراس تحديدًا – اندفع لتأييده بأسباب لها علاقة بضعف البنيان السياسي أو الحماس الزائد غير القائم على أي أسباب منطقية، في كل الأحوال فإن النتيجة أن عددًا من "أولتراس نهضاوي" هذا تورط لاحقًا في جرائم تتعلق بحرق سيارات للشرطة وقضايا عنف، وكأن ذلك هو النتيجة الطبيعية والمنطقية لأي جمهور يتحول إلى أولتراس.

أن يكون للبلد رئيس يتمتع بجماهيرية كبيرة، هذا أمر صحي، يمكّنه من أن يتحرك على أرضية ثابتة، وأن يمتلك

شـجاعة التغيـير وهـدم الأصنـام وهـو يـدرك أن ظهـره محمـي، لكـن أن يكـون للرئيـس أولـتراس، فهـذه لعبـة خطـرة، تضـع الرئيـس في مكانـة بعيـدة عـن الجماهـير الحقيقيـة، وتـورّط الأولـتراس أنفسـهم في أعمـال شـديدة التطـرف.

هل علينا أن نقلق إذن من أولتراس السيسي؟

نحـن قلقـون بالفعـل، المهـم الآن أن يشـعر الرئيـس نفسـه بالقلـق.

obeikandl.com

السيسي ولعنة مبارك

لا يتحدث الرئيس السيسي عن الرئيس الأسبق حسني مبارك قط، ويبدو ذلك تكتيكًا معتمدًا ومنهجًا يتبعه السيسي عن عمد، ربما لقطع أي صلة أو علاقة بنظام مكروه شعبيًا، ولربما لأنه يدرك أن الفاصل الزمني بين سنوات حكمه وسنوات حكم مبارك، ليس كبيرًا، والاستدعاء وارد، ويثير القلق حتى ولو كان مبنيًا على أسس خاطئة.

حتى لما صدر حكم قضائي ببراءة مبارك من تهمة قتل متظاهري ثورة يناير في نوفمبر من عام ٢٠١٤، انتظر السيسي لنحو ٣٠ ساعة بعد صدور الحكم، قبل أن تصدر الرئاسة بيانًا مقتضبًا قالت فيه إن الرئيس تابع الأحكام الصادرة بشأن القضايا المرفوعة على عدد من رموز نظام الحكم السابق وكبار المسؤولين، وأنه بالنسبة لطبيعة الأحكام القضائية الصادرة، لا يجوز التعقيب عليها»، لاحظ أن البيان لم يذكر اسم مبارك أبدًا، وكأنه اسم ملعون مجرد ذكره، ولو في بيان مكتوب سيفتح أبواب الجحيم.

ولما بدأت موجة الانتقادات تعلو لتطول بعض من خطوات الرئيس السيسي، بعد نحو ستة أشهر من توليه السلطة، وذلك

obeikandi.com

فيما يتعلق بتحركاته السياسية الداخلية أو ارتكانه لحكومة مقاولات مثل حكومة المهندس إبراهيم محلب، وجد الرئيس السيسي نفسه مضطرًا للحديث عن خطايا النظام السابق، معتبرًا أن الرئيس الأسبق «دون أن يسميه» كان يجب أن يترك الحكم قبل ١٥ عامًا من ثورة يناير، لكنه لم يفعل، من جديد ظل اسم مبارك ملعونًا، يتجنب السيسي ذكره مثلما يتجنب ولاد البلد ذكر اسم مرض السرطان، ويطلقون عليه بدلا من ذلك اسم «المرض الوحش».

المرة الوحيدة التي ذكر فيها الرئيس السيسي اسم مبارك صراحة، كانت في لقاء مغلق مع المثقفين في ديسمبر عام ٢٠١٤، وحينها سرّب بعض المشاركين في اللقاء أن السيسي قال نصًا: «منه لله مبارك خرب مصر على مدى ٣٠ سنة، ونحتاج إلى ٣٠ سنة أخرى لإصلاحها»، وهي جملة صياغتها لا تتفق مع لغة السيسي المهذبة عادة، والتي تتجنب الغلط في سيرة الآخرين، بألفاظ دارجة، ولا يمكن التأكد من صحتها إجمالا، طالما لم تخرج عبر لقاء عام، أو في بيان رسمي.

على العكس، يبحث الرئيس الأسبق حسني مبارك عن أي فرصة للحديث عن السيسي صراحة وبمودة كبيرة، فهو قبل انتخابات ٢٠١٤ الرئاسية، قال بأن السيسي الأصلح لمصر، ثم مع افتتاح قناة السويس الجديدة، أشاد كثيرًا بالمشروع، قبل أن يصف السيسي بالرئيس الذكي، الذي خلّص مصر من ظلام الإخوان، وذلك بحسب تصريحات تليفزيونية للممثل تامر عبد المنعم، الذي أصبح المتحدث «الرجالي» باسم مبارك، بينما الكاتبة الكويتية

Obeikandi.com

«فجر السعيد»، هي المتحدث النسائي باسم الرئيس الأسبق.

من الواضح قطعًا هنا اختلاف الدوافع.

السيسي يتجنب مبارك باعتباره لعنة، ومبارك يحاول التقرب من السيسي أملا في غسيل السمعة والتاريخ، لكن الاثنين متفقان على عدم الحديث عن أي علاقة جمعت بينهما، حينما كان كلاهما في السلطة، وليس واحد على رأسها والثاني في السجن.

التقى السيسي ومبارك أكثر من مرة، قبل ثورة يناير، كان حينها السيسي مديرًا للمخابرات الحربية وعضوًا في المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وكان مبارك رئيسًا للبلاد، ورئيسًا للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، وفي أكثر من حديث صحفي ذكر السيسي أنه توقع قيام الثورة الشعبية على مبارك، بل وحذّر منها، لكن الأخير لم يهتم، أو لعله لم يستمع أساسًا إلى ذلك، لكن هل قال السيسي ذلك لمبارك صراحة؟ وماذا دار بينهما في اللقاءات التي جمعتهما معًا ولو بشكل عابر؟

هذه أسئلة الإجابات عنها لن يفرج عنها الآن، لكن المثير للانتباه في هذا الشأن، هو أن السيسي ينفذ في كثير من الأحيان، ما فشل في تنفيذه مبارك.

فقانون الخدمة المدنية، الذي تسبب في خروج أول مظاهرة كبرى في عهد السيسي لتهتف ضد إجراء تتخذه الدولة، هو بالأصل مشروع أعده الوزير الأسبق أحمد درويش عام ٢٠٠٧، لكن مبارك كعادته أرجأ تنفيذه سنة وراء الأخرى؛ تجنبًا لغضب شعبي قد يهز دولته، رغم أن القانون – مع

أي تحفظات عليه – أحد الأساسيات والركائز التي يمكن من خلالها بناء دولة حديثة، لا يعرف جهازها الإداري مكانًا لأحد إلا إذا كان يستحق ذلك.

والقرار الذي اتخذه السيسي عقب انتخابه بأسابيع قليلة برفع أسعار الوقود، بنسبة تتجاوز ٥٠٪، هو قرار اتخذه مبارك مرة واحدة فقط في آخر ١٠ سنوات في حكمه، رغم يقينه بأن تصحيح موازنة الدولة، وبالتالي تصحيح خطط المصروفات والمشاريع، لن يحدث إلا برفع الدعم التدريجي عن الوقود مع إيجاد بديل – لم يعثر عليه الرئيس السيسي حتى الآن – يضمن وصول وقود مدعّم لمن يستحق.

لاحظ أيضًا أن السيسي يفضل دومًا أن تكون حكومته منزوعة السياسة، هم وزراء منفذون، بعضهم بتاع شغل، وبعضهم الآخر بتاع شو، لكن لا أحد فيهم يعرف الدور السياسي، الذي يجب أن يقوم به الوزير، هذا منهج أراد مبارك أن يؤصله في حكومات سنوات حكمه الأخيرة، برعاية نجله جمال، الذي كان من هواة أن تكون الحكومة تنفيذية لا تعرف الفرق بين السياسة وكوز الدرة، بينما حزبه «الوطني غير المأسوف على حله» هو الذي يقوم بالأدوار السياسية المصطنعة والمفتعلة قطعًا. هكذا انزاح من المشهد تدريجيًا الوزراء العتاولة المخضرمون في السياسة «مثل مفيد شهاب وصفوت الشريف وكمال الشاذلي»، لتخلو المقاعد لأصحاب شركات وقيادات حكومية تنفيذية، حتى لا يستحوذ على المشهد السياسي سوى الوريث وحزبه، ثمة خطة ما في هذه الحالة، بينما لا يتضح لأحد ما الغرض،

الذي يكمن وراء أن تكون حكومة السيسي الحالية خالية من السياسة وأهلها، رغم أنه لا ظهير سياسي واضح يقف خلف الرئيس السيسي حتى يومنا هذا.

هل يعرف الرئيس السيسي إذن أن لعنة مبارك التي يتجنبها، ربما تكمن في تفاصيل بعض ما يتخذه من قرارات؟

ربما مع الأخذ في الاعتبار أن شعبية السيسي، التي لا تزال حتى يومنا هذا عصية على الاهتزاز، حتى وإن أصابتها شروخ هنا وهناك، هي الحائط الذي يستند إليه الرئيس فيما يتخذه من قرارات وأفعال يبدو ظاهرها أنها تخاصم المزاج الشعبي، لكن الأكيد أن جزءًا كبيرًا من لعنة مبارك الحقيقية، كان فيما فعله من تفريغ للسياسة وتفخيخ للأحزاب والنقابات، وحصار حرية التحرك في الشارع وبين الناس، وأن عدم تكرار ذلك المنهج هو الخطوة الأهم، التي يجب على الرئيس السيسي أن يفعلها لينزع سم هذه اللعنة.

مدرسة السيسي.. مبارك سابقًا!

تقول القصة إن أهالي قريتين بائستين في أطراف كفر الشيخ تنازعا حول مدرسة، تم تسليمها من إدارة الأبنية التعليمية قبل خمس سنوات، كل قرية تريد أن يطلق اسمها على المدرسة، القرية الأولى اسمها يبدو أنه لقب لعائلة ما «بكري»، وربما يكون الثاني كذلك أيضا «كفر جلو»، في كل الأحوال فإن المستوى التعليمي للمدرسة، لن يتأثر بكل تأكيد باسمها سواء كان «بكري» أو «جلو» لكن تقول إيه في الدماغ.

تسلم محافظ كفر الشيخ المسئولية قبل سبعة أشهر، هو أستاذ هندسة يُدعى «أسامة حمدي»، وصديق مقرّب لرئيس الوزراء السابق إبراهيم محلب، ويبدو أن ذلك كان أحد أسباب وصوله إلى هذا المنصب، عملا بمبدأ «الأقربون أولى بالمعروف والمناصب»، ولما وجد هذه المدرسة معلقة في الهواء بسبب الاسم، قرر أن يجيب من الآخر، جمع أهالي القريتين المتنازعتين في قعدة عرب، ثم طلب منهم أن يصلوا على النبي وأن يزيدوا النبي صلاة، قبل أن ينزل عليهم بالقول الحسم «المدرسة هيكون اسمها مدرسة المشير عبد الفتاح السيسي.. حد له شوق في حاجة»؟

هكذا دبت الحياة في عروق المدرسة مع أول يوم دراسي، وسط حضور لفيف من قيادات المحافظة ووزارة التربية والتعليم، وسط إشادة بحكمة المحافظ، وإلقاء كلمة عن مكانة الرئيس السيسي.

جدع المحافظ، حافظ على أموال الدولة، وأنقذ المئات من تلاميذ القريتين من الشحططة في مدارس القرى المجاورة، لكن هل كان ذلك هو غرضه الوحيد فعلا من تغيير اسم المدرسة من «كفر بكري/ جلو»، إلى مدرسة «المشير السيسي»، أم أنه أراد أن يمسي على الرئاسة، وأن يفتتح موسم تسمية المؤسسات باسم الرئيس وهو داء ومرض شفانا الله منه بفعل ثورة ٢٥ يناير؟

طب ما كان يسميها مدرسة «كفر بكري وجلو» أو «كفر جلو وبكري»، محصلش حاجة يعني، أو حتى يا سيدي لو أراد مجاملة الرئيس وحسم الأمر في ذات الوقت كان سماها «مدرسة تحيا مصر»، تعدي.. النفاق والتزلف فيها ليس واضحًا ولا فجًا، ثم أنه شعار الحملة الانتخابية للرئيس السيسي ف«تقضي الواجب»، وكمان اسم مصر واضحًا فيها فمبلوعة، لكن «مدرسة المشير السيسي» مرة واحدة.. وسعت كتير.

هل هذا أمر يستدعي إذن أن يسافر الرئيس السيسي إلى كفر الشيخ؟

طبعًا.

أولا، كفر الشيخ مثلها مثل باقي مدن ومحافظات مصر، من حقها على الرئيس أن يزورها ويتفقد أحوال أهلها عن قرب وليس عبر «الفيديو كونفرانس» فحسب.

ثانيًا، إذا قام الرئيس بزيارة المدرسة التي تحمل اسمه، ثم وجّه الشكر إلى أهالي القريتين؛ لأنهم يقدرونه بهذا الشكل، قبل أن يطلب أو يأمر بتغيير اسم المدرسة إلى «مدرسة تحيا مصر»، سيقضي تمامًا على أي محاولة رخيصة أخرى لإعادة إحياء «مدرسة اسم الرئيس»؛ لأنها إذا مرت في مدرسة بكفر الشيخ عادي كده، ستجدها غدًا في مستشفى في دمياط، ومصنع في أسيوط، وأكاديمية في الإسماعيلية، ونعود مرة أخرى إلى صناعة «الرئيس الإله» الذي تحل بركته بمجرد وضع اسمه على أي مؤسسة.

تقدير الرئيس ومحبته، ليس بوضع اسمه بكل تأكيد على مدرسة تم بناؤها قبل خمس سنوات.. ثم إذا حبكت يعني، وإذا أردنا أن نرجع الحق لرؤسائه، أو نعود بالزمن إلى ما قبل ٢٥ يناير، فليكن اسم المدرسة هو «مدرسة حسني مبارك»، باعتباره الرئيس، الذي تم بناء المدرسة في عصره قبل خمس سنوات.. وأهو بقى مزايدة بمزايدة!

السيد الرئيس، رجاء غيّر اسم المدرسة بنفسك، ربما لا يستدعي الأمر الذهاب إلى كفر الشيخ، افعلها بأي طريقة، بتعليمات مباشرة أو ضمنية، بتليفون لرئيس الوزراء أو وزير التعليم أو محافظ كفر الشيخ أو حتى عمدة كفر جلو أو كفر بكري. أغلق الباب مبكرًا قبل أن تنخلع مفاصله من موجات نفاق عاتية، ثم والأهم، اجعل محافظ كفر الشيخ هو من يغيّر اللافتة بنفسه، حتى يعرف الجميع أن هذه هي رسالة الدولة، وأن من يحضّر العفريت هو من يصرفه، خاصة وأن - كما تعلم سيادتكم -، بلدنا ملئ بالعفاريت.

(إحـم.. منـذ كتابـة هـذه السـطور في سـبتمبر ٢٠١٥ وحتـى طباعـة هـذا الكتـاب، لا تـزال المدرسـة محتفظة باسمهـا الجديد.. مدرســة السيسي).

obeikandl.com

.. والآن ماذا سيفعل الرئيس بالبرلمان؟

حسنا، هـذا هـو البرلمـان المثالي لأي رئيـس، نظرة سريعة على معانـاة أخونـا في الله «بـاراك أوبامـا» مـع الكونجـرس الأمريكـي، إلى حـد «طلـوع عينـه» في أزمـة «إغـلاق الحكومـة» الشـهيرة في سـبتمبر ٢٠١٣، عندمـا تشـدد الجمهوريـون في تمريـر الموازنـة، تجعلـك تتأكـد مـن أن هـذا «برلمـان سـكرة».

مشـاهدة رئيـس الـوزراء البريطانـي ديفيـد كامـيرون، وهـو يقـف في قلـب مجلـس العمـوم، مثـل الطفـل المذنـب حتـى يقنـع النـواب – نـواب حـزب العمـال المعـارض تحديـدًا– بالمسـئولية الأخلاقيـة الـتي تجعـل بـلاده مطالبـة باسـتقبال ٢٠ ألـف لاجـئ سـوري خلال السـنوات الخمـس القادمـة، وهـو التصريـح الـذي خـرج منـه ذات صبـاح مـن فـرط التأثـر بمشـاهد اللاجئـين الهائمـين في الـبر والبحـر، فاسـتُدعِي علـى أثـره ليقـف «طابـور ذنـب» مـبررًا وشـارحًا ومفسـرًا أمـام السـادة النـواب الإنجليـز، كل هـذا يجعلـك تـدرك أننـا نعيـش «حلمًـا سياسـيًّا» يتطلـع إليـه كل الرؤسـاء في هـذا الكـون.

- هـذا برلمـان لم يحـظ بـه حتـى الإخـوان، عندمـا اسـتولوا علـى حكـم مصـر في زمـن مسـروق، فالجماعـة في برلمـان ٢٠١٢ العجيـب، فـازت بـ٢١٨ مقعـدًا مـن إجمالـي ٤٩٨ بنسـبة

٤٣،٧٪ فقط، صحيح أن هذه النسبة ترتفع إلى أكثر من ٧٧٪ بعد حساب مقاعد حزب النور، والأحزاب الدينية الأخرى وباقي أحزاب الهامش، التي تحالفت الجماعة معها، وصحيح أن هذا كان يضمن تمرير ما يريده الإخوان، حتى ولو وقف في مواجهتهم ربع البرلمان المتبقي، إلا أنَّ شهوة الجماعة في السيطرة، وارتباك المشهد إجمالا، ثم حل المجلس نفسه بقرار من المحكمة الدستورية بالتوازي مع صعود محمد مرسي لمنصب الرئيس، حرَم الإخوان من هذا النفوذ، ولعل ذلك كان من فضل الله ورحمته، فهل نطمع فيهما مجددًا؟ العامل المشترك بين برلماني ٢٠١٢ «الإخواني» وبرلمان ٢٠١٥ «السيساوي»، هو أن الانتخابات في كليهما بدت وأنها نزيهة تطبق القواعد التقليدية من الديمقراطية، لكنها مع هذا لم تكن انتخابات حرة. ففي الانتخابات الأولى، لم تكن إرادة الناخبين حرة مطلقًا؛ لأنهم أولا محملون بإرث طويل مفاده أن «الإخوان طيبون ومبارك شرير، وأنه حان وقت رد الجميل»، وثانيًا، لأن الإخوان – ومن معهم من أبناء التيارات الدينية – لجأوا إلى أسلحة انتخابية شعبوية راسخة وناجعة، وتتعلق بتصدير الدفاع عن الإسلام في حملاتهم الانتخابية، ثم استخدام ما تيسر من نفوذ مالي، وصل إلى حد الرشوة الصريحة، افتخر الإخوان حينها بأنهم لم يدفعوا مليمًا واحدًا لشراء الأصوات، لكنهم منحوا الناس شعورًا زائفًا بأن التصويت لصالحهم هو تصويت لله، ثم استخدموا الصابون والزيت والمكرونة، وما تيسر من بضاعة لتأكيد هذا الإحساس

بالبركـة، أي أنهـم اشـتروا الأصـوات بالقسـط، بينمـا اختـار كثـير مـن نـواب برلمـان ٢٠١٥ أن يشـتروا الأصـوات «كاش»، فـكان أن وصـل ثمـن الصـوت إلى ٧٠٠ جنيـه تُسـلَّم عـدًا ونقـدًا لصاحـب الحـظ السـعيد.

في انتخابـات برلمـان ٢٠١٥، كان بديـل «صوتـك لربنـا»، هـو «صوتـك لمصر»، إذن تحـول البديـل مـن «تطرف ديني» إلى شوفينية «تطـرف وطـني»، وأصبـح شـعار العمليـة هـو «أنقـذوا مصـر» بـدلا مـن «أنقـذوا الإسـلام»، دون أن يعـني ذلـك إنقـاذ الديـن أو الوطـن بـكل تأكيـد، في كلا البرلمانيـين، جـاء النـواب بـإرادة شـعبية دون تزويـر مؤثـر أو تبديـل للصناديـق أو تسـويد فـج للبطاقـات (مـع أن صوتًـا واحـدًا مـزورًا يفتـح بابًـا للطعـن في نزاهـة النتيجـة.. لكـن مـا علينـا)، وعلينـا إذن أن نحـترم صـوت الشـعب حتـى، ولـو كان مخلوطًـا برشـاوى قسـط أو كاش، أو وقـع تحـت تأثـير رعـب حمايـة الديـن أو الحفـاظ علـى الوطـن.

الشـعب الـذي جـاء بنـواب الإخـوان والنـور والسـلفية الجهاديـة، هـو نفسـه الـذي جـاء بنـواب مثـل عبـد الرحيـم علـى وتوفيـق عكاشـة ومرتضـى منصـور، ونجلـه ووزيـر حكومـة مبـارك السـابق علـى مصيلحـي، ومعـه نحـو ١٠٠ نائـب خـبرة يحملـون كارنيـه الحـزب الوطـني المنحـل، وإلى جوارهـم ضابـط المخابـرات العسـكرية السـابق تامـر الشـهاوي، الـذي يحـب أن يلقـب بصقـر المخابـرات، وأن يظهـر بصـورة رجـل المسـتحيل الغامـض الـذي لا يقـول كل مـا يعرفـه.. هـذه هـي اختيـارات النـاس، سـواء تمـت عـن اقتنـاع أو محبـة أو خـوف أو جهـل أو فقـر، ولا يمكـن

السخرية منها أو النظر إليها بفوقية، وإنما يجب علينا جميعًا أن نسعى للإجابة عن هذا السؤال المركب: لماذا اختار الناس هؤلاء ممثلين لهم تحت قبة البرلمان الآن، بعدما اختاروا نواب الإخوان قبل ثلاثة أعوام؟

لكن ونحن مشغولون بالإجابة عن هذا السؤال، يجب على الرئيس السيسي أن يجيب عن سؤال أكثر صعوبة: ماذا ستفعل بهذا البرلمان؟ سواء أكمل هذا البرلمان دورته البرلمانية لخمس سنوات (وهذا رهان اللواء السابق سامح سيف اليزل)، أو صدر قرار من المحكمة الدستورية بحله خلال عام (وهذا هو توقع رئيس اتحاد طلاب مصر السابق محمد بدران)، وإلى أن تنتصر رهانات أو توقعات أحدهما، سيمارس الرئيس السيسي مهامه الآن فصاعدًا، وفي ظهره برلمان منتخب، يقدر دوره الشجاع في ٣٠ يونيو تقديرًا يصل إلى حد التقديس، ويدعمه بشدة في مواقفه الداخلية والخارجية من قبل حتى أن تطأ أقدام نوابه البهو الفرعوني، برلمان العثور فيه على معارض صريح للرئيس سيكون مهمة شديدة الصعوبة، قد ترى فيه خالد يوسف يهاجم تدخل الدولة في حرية الإبداع، أو يقف على مصيلحي لينتقد سياسات وزير التموين، وقد نشاهد حتى مرتضى منصور ونجله يطالبان بحل مجلس إدارة الأهلي أو ضم بطولتي الدوري والكأس في مسابقة واحدة، لكنك لن ترى أحدهم يقف ليعارض الرئيس في قرار هنا أو هناك.

لاحظ أن الأحزاب الكبرى الثلاثة داخل البرلمان (المصريين الأحرار- مستقبل وطن- الوفد) جميعها متفقة علانية على

دعم الرئيس من قبل الانتخابات ومن بعدها، بينما لن يكون هناك صوت لممثلي النور، وفي الأغلب سيتجمعون معًا في جانب واحد، وهم ينظرون بدهشة لكل هؤلاء «العلمانيين» قبل أن يسألوا أنفسهم السؤال الوجودي: «إحنا إيه اللي جابنا هنا»؟

الشاهد أن هذا هو حال كل برلمانات مصر منذ أن نفخ الرئيس السادات في الحياة السياسية من جديد في أواخر السبعينيات وحتى يومنا هذا، كل برلمانات مبارك كانت كذلك، حتى ولو خرج استثناء هنا أو هناك في دورة برلمانية عابرة، برلمان الإخوان المقصوف عمره، لم يمهلنا القدر لنراه كيف يدّعم رئيسه، لكن الدم الذي سال ويسيل على أعتاب مقعد الرئاسة بعد عزل الإخوان منه، يجعلك تتصور إلى أي مدى كان برلمان الإخوان سيقاتل حرفيًا لدعم ديكتاتورية رئيسهم.

هذا إذن اختبار قدري جديد للرئيس السيسي، هو كان يدرك عندما ترشح في الانتخابات أنه لن يكون رئيسًا للسويد أو كندا، وأن التحديات التي يواجهها لن تقف عند حدود مواجهة إرهاب محلي ودولي، أو السعي لترميم الاقتصاد، أو الحفاظ على ما تبقى من مؤسسات الدولة، ولم شمل الشعب الذي تشرذم، بل إن هناك مهمة أصعب، وهي أن يسعى لترسيخ قواعد دولة ديمقراطية حقيقية؛ لأن هذه النقطة الأخيرة هي المفتاح الذي يعالج به كل المشكلات السابقة، في كل الدول التي تعرف حياة نيابية سوية وسليمة، يدرك الرئيس أن البرلمان عَينٌ عليه، بينما هنا في مصر يبدو الوضع معكوسًا، وترى أهل البرلمان يستشعرون رقابة الرئيس عليهم.

هـذه أوضـاع حـان وقـت نسـفها، ومـن المؤسـف أن يكـون ذلـك في يـد الرئيـس السيسـي وحـده، وخاضـع لإرادتـه، وترتيـب أولوياتـه، فلعلـه إذن يأخـذ بيـد هـذا البرلمـان ليعيـد إليـه صفتـه الأصليـة الـتي يُعـرَف بهـا في كل الدنيـا باسـتثناء المحروسـة، في أمريـكا يفتخـرون بـأن مبنـى الكونجـرس مصنـوع مـن الرخـام غـير القابـل للكسـر، بينمـا البيـت الأبيـض تم بنـاؤه بالحجـر التقليـدي، وذلـك لأن سـاكن البيـت الأبيـض يتغـير دومًـا، بينمـا سـلطة ورقابـة الكونجـرس باقيـة أبـدًا، حـان الوقـت إذن لأن يتـم بنـاء البرلمـان المصـري بتلـك المـادة غـير القابلـة للكسـر أو للانحنـاء

Obeikandl.com

صورة جماعية للاستبداد

كانت هذه واحدة من الصور الأكثر انتشارًا عقب «هبَّة الثورات» فى البلدان العربية مع مطلع ٢٠١١. القذافي «ليبيا» يستند بيده إلى كتف مبارك «مصر»، ويضع كف يده الأخرى على كتف علي بن صالح «اليمن»، وإلى جوارهم يقف بن علي «تونس» مبتسمًا فى سعادة، الصورة جمعت الحكام الفاسدين الأربعة فى آخر قمة عربية عُقدت قبل أن يحل الطوفان على المنطقة، وبدا أن من التقطها كان يقرأ القدر.

إذ إن الحكام الأربعة أطاحت بهم ثورات شعبية «إلا قليلا»، بل وقُتل أحدهم – القذافي – على يد أحد أبناء شعبه الثائرين المنفلتين، بينما سُجن آخر لنحو ثلاث سنوات – مبارك – وفرَّ ثالثهم هاربًا من مصير مماثل إلى السعودية – بن علي – بينما أصبح آخرهم علي بن صالح خارج السلطة، لكنه رقم معقد فى الأزمة والاقتتال داخل بلاده، أثارت الصورة تعليقات ساخرة وأخرى جادة تتعلق بالدراما التي جمعت الحكام الأربعة فيها، ثم المصير الذى واجهوه.

وكان السؤال الذي ربما لم يبحث عن إجابته كثيرون، هل يجد الديكتاتوريون أنفسهم أكثر أمانًا حينما يكونون معًا؟ أم أنهم يستشعرون الصراع بينهم؟ السؤال نفسه لا يزال صالحًا

حتى يومنا هذا، وذلك لأن الديكتاتورية كما الديمقراطية تتغير أساليبها – ربما مع مرور السنوات – لكن قواعدها ثابتة لا تتغير أبدًا، وإذا كانت هناك دول كبرى تمارس الديمقراطية تلجأ أحيانًا إلى دعم دول ديكتاتورية بحثًا عن مصالحها «الولايات المتحدة نموذجًا مع عديد من دول أمريكا اللاتينية فى سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي»، فإن ذلك يفتح الباب للتساؤل حول العلاقة بين دول لا تزال متعثرة فى أول طريق الديمقراطية، وبين الدول التى تمارس الديكتاتورية النقية، أو بصورة أكثر وضوحًا ومباشرة، ما علاقة مصر ورئيسها عبد الفتاح السيسي بالدول الديكتاتورية فى المنطقة والعالم؟

هل هناك أهمية للسؤال بالأساس؟ قطعًا، أولا لأن السؤال «مش حرام»، وثانيًا لأنه من حقنا أن نراقب ونتابع ونسأل ونفهم طبيعة العلاقة التى تجمع الرئيس بعدد من رؤساء آخرين يعرفهم كتالوج الاستبداد جيدا، ويضعهم فى أولى الصفحات، وثالثًا لأنه من حقنا بعد أن نراقب ونتابع أن نقول الرأى لعله ينفع أو يكون نذيرًا، فى حفل ختام المؤتمر الاقتصادي فى شرم الشيخ فى مارس ٢٠١٥، كان مفاجئًا لكثيرين صعود الرئيس السوداني عمر البشير على المنصة ليلقي كلمة بلاده، المفاجأة كانت فى الحالة الاقتصادية المتردية المعروفة عن السودان، وهي حالة تفاقمت تحت حكم البشير منذ عام ١٩٩٣ وحتى يومنا هذا، فما الذى سيقوله هذا الرجل فى دعم اقتصاد مصر، وهو تطبيق للمثل الشعبى الأصيل «لو نفع.. كان نفع نفسه»؟ لم يقل شيئًا طبعًا، بل إنه على عكس غالبية المشاركين فى المؤتمر، الذين أعلنوا عن الاستثمار فى مصر،

Obeikandi.com

دعا لأن تقوم مصر بالاستثمار فى السودان، وبدا أن حضور البشير المؤتمر كان مجاملة واضحة، أو ربما لبُعد يتعلق بأزمة سد النهضة الإثيوبي، علمًا بأن موقف السودان فى الأزمة منحاز وبشكل صريح لإثيوبيا، المشكلة أن عمر البشير، بجانب أنه يحكم السودان منذ ٢٢ عامًا حكمًا فرديًا مطلقًا، اعتاد فيها أن يواجه المعارضة بالإلقاء فى السجن، فهو أيضًا الرئيس الوحيد فى العالم المطلوب فى المحكمة الجنائية الدولية بتهم تتعلق بجرائم حرب فى إقليم دارفور.

طبعا لأنه لم يحن الوقت المناسب، لا يزال البشير حرًّا طليقًا، لكنه فى يوم ما عندما تنقلب المعادلات سيجد نفسه واقفًا خلف القضبان، لكن لماذا كان الرئيس السيسي ودودًا بشكل مفرط فيه مع رئيس مثل البشير، وهو حاكم مكانه معروف فى كتب التاريخ، لدرجة أنه حضر حفل تنصيبه رئيسًا رغم أن الانتخابات الرئاسية السودانية الأخيرة هذه كانت نموذجًا فى المسخرة السياسية؟ لكنه ليس عمر البشير فقط.

من حضر بعض جلسات الإعلاميين مع الرئيس السيسي، يعرف جيدًا أنه معجب بتجربة «كوريا الشمالية» كثيرًا، هو إعجاب بالنموذج الذى استطاع أن يقاوم العالم الغربي كله، وأن يتخذ لنفسه طريقًا منفردًا فى إدارة البلاد وتماسكها الداخلى وقدرتها على المنافسة العالمية، بل وإثارة القلق لدى قوى كبرى مثل الولايات المتحدة، دون أن يعني ذلك إعجابًا بالانفراد بالسلطة والديكتاتورية المطلقة. إعجاب بالنموذج إذن وليس إعجابًا بالأسلوب، وهو ميل مفهوم يمكن أن تفسره خلفية

الرئيس السيسي العسكرية والمخابراتية، وطبيعة التحديات الإقليمية والعالمية، التى واجهها من قبل حتى يصل إلى كرسى الحكم، لكن من يضمن ألا يجد الرئيس حوله وهم كثيرون – لا نعرف أغلبهم بالمناسبة – من يُجمل له التجربة الكورية الشمالية إجمالا، وليس فى جزء منها، ويدعوه إلى تطبيقها بحذافيرها؟ السيسي ليس من النوعية التى تتأثر بالمحيطين به بسهولة أو بسرعة، أو هكذا يبدو، لكن التحذير واجب فى كل الأحوال، خصوصًا مع الإعجاب، غير السري، بحالة الرئيس الروسي بوتين الذى لا يزال قادرًا على البقاء فى السلطة صانعًا نفوذا متزايدًا فى الداخل والخارج لأكثر من ١٦ سنة، دون أن يقع فى غلطة دستورية واحدة، رغم الشبهات الكثيرة التى تحيط طريقة إدارته للبلاد، وتبدو ملامسة وبقوة لحدود الاستبداد والانفراد بالسلطة.

دعك من أن الرئيس السيسي تجمعه علاقة جيدة مع مجمل حكام دول الخليج، وهم فى معظمهم يستندون إلى نظم حكم منفردة ومطلقة أو أخرى تتجمل ببرلمان أو مجلس شورى، لكن هذه علاقات تفرضها عوامل براجماتية وعملية عدة، لا يمكن التقليل من شأنها أو الدعوة لنفسها من منطلق الدفاع عن الديمقراطية.

هى نفسها تلك المبررات التى تجعل مصر تحت حكم السيسي تتخذ موقفا متزنًا من حكم بشار الأسد فى سوريا، فلا هى ضده مباشرة، ولا هى تدعمه بشكل صريح، وذلك لاعتبارات تتعلق بالبديل الموجود على الأرض فى بلاد الشام

متمثلا فى ذلك الكابوس المعروف باسم داعش، ما الخلاصة إذن؟ لا توجد دولة فى العالم كله تستطيع أن تفرض على نفسها قواعد تجعلها تتعامل مع الدول الديمقراطية وتتجنب الدول الاستبدادية، العالم متشابك والمصالح متداخلة بشكل يجعل ذلك فى عِداد المستحيل، لكن المهم هو ألا تُصاب الدول صاحبة المناعة الديمقراطية الهشة بالعدوى من الدول التى استوطنت فيها الديكتاتورية، لأن المرض هنا إذ عاد يصبح أكثر قوة وشراسة ومقاومته أكثر عنفًا. وقى الله بلادنا الأمراض كافة، ما خفي منها وما ظهر.

obeikandi.com

ماذا يقول السيسي الإنسان للسيسي السياسي؟

من شروط الحكم الرشيد أن يكون الحاكم إنسانًا. مضبوط على موجة شعبه، يدرك آلامه، وإن لم يعشها، يعرف طموحاته وإن كانت بعيدة المنال، يفهم سر فرحته وأسباب حزنه، وفي يده مفاتيح القلوب المغلقة، كل حكم رشيد إذن في قلبه حاكم إنسان، لكن هل بالضرورة أن يكون كل حاكم إنسان نموذجًا للحكم الرشيد؟

تعال نجربها على مصر.

السيسي رئيس يتمتع بصفات إنسانية أصيلة، يكاد يبكي بصدق كلما تحدث عن حال الفقراء، تلتمع عيناه بالتأثر الحقيقي حينما يهتف «تحيا مصر»، يطبطب بيده في حنان أبوي على كتف أرامل الشهداء، ويقبل رؤساء الأمهات، ويقف واجلا فخورًا محني الرأس في تقدير، وهو يكرم «صيصة» الصعيدية التي تنكرت في ملابس الرجل أكثر من أربعين عامًا لتعمل في شوارع مجتمع قبلي مغلق، ويرفع سماعة هاتفه الرئاسي ليطلب من المسئولين فورًا تنكيس منزل يكاد أن ينهار على رأس سيدة فقيرة وأسرتها في آخر الصعيد وإعادة بنائه

obeikandi.com

من جديد على نفقة الدولة، يرق قلبه لسيدة سكندرية فقدت مأواها فباتت ليالي باردة في الشارع، فيأمر بنقلها فورًا إلى دار مسنين تقدم لها الرعاية والاهتمام، يلبي طلب بطل أوليمبي من متحدي الإعاقة ويلتقيه في القصر الجمهوري، مشجعًا على استمرار الكفاح الصعب، يتصدر جنازات شهداء الجيش والشرطة كلما تيسر، مؤكدًا على أنه «ياريتني كنت مت مكانهم»، دون أن يستشعر أحد بأن في ذلك مزايدة أو مبالغات.

هذه مشاعر إنسانية نبيلة قطعًا، يزيد ألقها وتأثيرها أنها صادرة من رأس الدولة، لكن هل تكفي هذه المشاعر الإنسانية لتحقيق حكمًا رشيدًا؟

الإجابة لا طبعًا.

السيسي في أفعاله الإنسانية هذه بالأساس لا يتحرك من منطلق رئيس جمهورية يمارس صلاحياته السياسية، هو هنا مواطن عادي «ربنا اعطى له السلطة والنفوذ» فحسب، كل أفعال السيسي الإنسانية السابقة، يمكن أن يقوم بها أي مواطن عادي يتمتع بعلاقات جيدة مع الدولة، لكنها ذات دلالات خاصة قطعًا، عندما يقوم بها السيسي الرئيس لا السيسي المواطن، لكن يبقى السؤال هل هذا هو دور أساسي في مهام الرئيس السياسية؟

برضه الإجابة لا. ليه؟

هنروح بعيد شويتين، إلى أمريكا، هذا بلد يلامس حدود الحكم الرشيد، مؤسسات مستقرة وانتخابات حرة نوعًا، مقارنة

بما يحدث في غيرها في بلدان أخرى، ثم أنه مجتمع مفتوح ينجح ويصعد فيه الشطار والانتهازيون لا الانتهازيون فحسب، كم تبلغ نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر هناك «أي يعيشون على أقل من دولارين يوميًا»؟، في آخر تقدير لعام ٢٠١٣، وصلت النسبة إلى ١٥٪، أي ما يقرب من ٤٦ مليون شخص، جميل، هل وجدت يومًا خبرًا يشير إلى الرئيس الأمريكي اتصل بحاكم ولاية «نورث كارولينا» ليطالبه ببناء منزل للعم «تشابل»، الذي يعيش متشردًا في الشوارع منذ عشرات السنوات؟ لم يحدث. هل سمعت عن أنهم أودعوا السيدة «كارين» العجوز إحدى دور المسنين التابعة لجمعية أهلية صغيرة على المحيط الهادئ، بناءً على توجيهات السيد الرئيس بعدما تابع مآساتها في إحدى حلقات برنامج «على مسئوليتي» الأمريكي؟ صعب. هل السبب في ذلك أن الأمريكيين أشرار غلاظ القلب ماتت فيهم الإنسانية، بينما نحن في مصر لا نزال نحمل المشاعر الإنسانية البكر التي لم تتلوث بعد؟

طبعًا لا. الفارق هنا ليس في الإنسانية وإنما في السياسة.

دور الحاكم الرشيد ليس أن يقوم بحل المشكلات الفردية كل على حدى، وإنما في معالجة أسباب هذه المشكلات من جذورها، بما لا يسمح بتكرارها على نطاق أوسع، هذه أمور تستغرق وقتًا طبعًا، خاصةً في بلد منهك، منذ سنوات طويلة مثل مصر، ولعل هذا ما يدركه الرئيس السيسي جيدًا، فيتحرك هكذا بشكل إنساني، لا يغفل تداعيات تلك السياسة، خاصة وأنه جاء إلى منصبه مستندًا إلى حس عاطفي شعبي لا يتكرر

كثيرًا. هل تظن أن ذلك استغلال سياسي لمواقف إنسانية؟ هذا تفتيش في النوايا لا يجوز، خاصة وأن طبيعة السيسي الإنسانية غالبة على سلوكه، منذ أن أصبح وزيرًا للدفاع، وظهر في هذا المشهد النادر، ليتحدث عن أهمية احترام الجميع للجيش، وبجواره يقف الرئيس الإخواني محمد مرسي صامتًا منتبهًا لما يقول، وكأنه يعتذر بصمته ذلك عما بدر من «عك» من قيادات إخوانية في حق القوات المسلحة، في زمن تمتع فيه الإخوان بحرية الاندفاع والغباء، قبل أن يفقدوا كل شيء بفعل هذا الاندفاع والغباء.

لكن الرئيس السيسي يدرك أنه يكون في صورة أكثر جماهيرية وشعبية، عندما يكون السيسي الإنسان لا السيسي السياسي، السيسي الإنسان يستحوذ على المشهد والعقول، يدخل إلى القلوب، ويقترب من مساحة لم يهتم رؤساء سابقون بها كثيرًا بهذه الصورة، كما أن إحاطته الإنسانية بآلام مواطنين في الصعيد وبحري والقاهرة، تعطي انطباعًا بأنه يقظ، وغير غافل عما يحدث هنا وهناك، حتى ولو كان منزل متهدم أو نومة في العراء أو حتى أمنية عابرة من سيدة عجوز.

هل هناك خطورة إذن من السيسي الإنسان على السيسي السياسي؟

بكل تأكيد، طغيان السيسي الإنسان يقلل من فاعلية السيسي السياسي، لاحظ أن السيسي يلعب السياسة منذ أن أصبح مديرًا للمخابرات الحربية، هذا منصب سياسي بامتياز قبل أن يكون عسكري؛ لأنه يتماس مع قلب الحدود ومع ما

يجري فيها، لكن السيسي لم يلعب السياسة بـ«قرفها وأحزابها وألعابها وألاعيبها» إلا بعد أن أصبح رئيسًا قبل نحو عام، ومنذ هذا التاريخ قد نختلف أو نتفق على تحقيق الرئيس لنجاحات اقتصادية أو أخرى تتعلق بإنهاء عزلة مصر الدولية، أو حتى بإعادة ترتيب الجهاز الإداري للدولة، إنما من الناحية السياسية، الناتج فقير وهزيل ويثير القلق على المستقبل السياسي للبلد كله، الذي - تخيل - وبعد أكثر من أربع سنوات على قيام ثورة ضد نظام الشخص الواحد، يبدوغير قادر على إنتاج منافس محترم أو زعيم معارضة حقيقي للرئيس.

هل السيسي مسئول عن حالة «موت السياسة» هذه؟ الأكيد أنه ورث من البؤس الكثير، لكن المسئولية لا تغادره قطعًا، ولعله إذا اهتم بأداء السيسي السياسي مثلما يهتم بأداء السيسي الإنسان، ظفر بالحسنيين. وفزنا نحن كلنا - لا بعض منا - معه.

فتنة النووي.. نداهة الرؤساء

هــذا مشــروع فُــتن بــه خمســة مــن رؤســاء مصــر والرئيــس السيسى سادسـهم، الفكـرة لامعـة خصوصًـا فـى سـنوات التحـولات وانقـلاب الموازيـن.

بـدأ الأمـر مـع الرئيـس عبـد الناصـر عـام ١٩٦٥ – هـذه ذُروة سـنين المغامـرة المصريـة مـن أجـل ترسـيخ الأقـدام وسـط عالم يتسـابق فـى جمـع السـلاح والنفـوذ – ولا تـزال آثـار قنبلـة هيروشـيما النووية عالقـة بالذاكـرة والأرواح، جـاءت نكسـة ١٩٦٧ لتفـرُم فـى طريقهـا أى طمـوح لبنـاء محطـة نوويـة فـى مصـر، ولم يكـن منطقيًّـا بعدهـا بـأي حـال مـن الأحـوال – والبلـد يلملـم شـتاته مـن أجـل أن يسـتعد لمعركـة التحريـر– أن يشـطح بالرئيـس السـادات الخيـال إلى حـد أن يسـعى لبنـاء محطـة نوويـة، لكـن فـى عـام ١٩٨١ بـدا أن هـذا هـو الوقـت المناسـب.

هــذه هــى ســنة الأفعــال الخارقــة والمواجهــات الصادمــة، لم يكـن الرئيـس السـادات يعلـم بـكل تأكيـد أنـه عامـه الأخـير في الحُكـم والدنيـا، لكنـه قبـل اغتيالـه بأشـهر قليلـة أصـدر قـراره بتخصيـص تلـك البقعـة النائيـة علـى شـاطئ المتوسـط بالقـرب مـن مطـروح، (الضبعـة)، لتصبـح أول محطـة لتوليـد الطاقـة النوويـة

obeikandi.com

– سلميًّا طبعًا – لكنْ مَن قال إن الطاقة النووية فيها الطيب والشرير؟

غاب السادات، لكن الحلم النووي راود خَلَفه مبارك، الوريث، تسلم البلد متهالك اقتصاديًّا ومنقسمًا سياسيًّا، فتأخرت «فتنة النووي» عامين.

في ١٩٨٣ طُرحت مناقصة عالمية لتنفيذ المشروع، لكن سترْ الله كان كامنًا في البيروقراطية المصرية الأصيلة، فقد ظلت المناقصة عالقة في الهواء لسنوات، حتى وقعت كارثة مفاعل تشرنوبل النووي المروعة عام ١٩٨٦ التى راح ضحيتها نحو ٢٠٠٠ شخص وهُجِّر على أثرها ٢٠٠ ألف مواطن، وضُربت سمعة المفاعلات النووية فى مقتل، بعدها توارى الحديث عن «الحلم النووي»، حتى تخلى مبارك عن رابطة العنق، وظهر في نيولوك رئاسي جديد يليق بالزمن، فعادت الفتنة عام ٢٠٠٧، وأعلن استئناف العمل – الذي لم يبدأ قط – فى تنفيذ المحطة النووية فى الضبعة، كان السؤال حينها؛ هل يصلح ذلك المكان لإقامة المحطة النووية؟ رغم أن السؤال الأكثر صوابًا هو: هل يجب علينا أن ننشئ محطة نووية من الأساس؟

غياب الرؤية والتخبط بين مشاريع ترسيخ مبارك الابن، وصناعة صورة جديدة لمبارك الأب، وفوضى السنوات الأخيرة في حكم آل مبارك، قهرت الفتنة، حتى جاءت ثورة 25 يناير، لنكتشف أن «فتنة النووي» عابرة للأزمنة والعصور والرؤساء.

كان مرسى رئيسًا مُغرمًا بصناعة الدراما له ولجماعته من خلفه – وربما من أمامه – يفتح القميص في ميدان التحرير

ويقـول: «لا قميـص واقٍ»، يخطـب متأففًـا في المحكمـة الدسـتورية، ثـم يذهـب لأهلـه في سـتاد القاهـرة بسـيارة مكشـوفة محتفيًـا بذكـرى نصـر لم يصنعـه، وعلـى هـذا قـرر الذهـاب إلى مرسـى مطـروح، ليُحيـي فـى أكتوبـر ٢٠١٢ مـن جديـد فتنـة النـووي علـى بُعـد كيلومـترات قليلـة مـن الموقـع الـذي رأى فيـه رؤسـاء متعاقبـون أنفسـهم، وهـم يناطحـون الـدول الكـبرى ويملكـون محطـات نوويـة.

غابـت فتنـة مرسـي ولم تغِـب فتنـة النـووي، حتـى فـى عهـد رئيـس انتقالـي هـو عدلـي منصـور، هـو الآخـر اسـتغل أجـواء ذكـرى نصـر أكتوبـر فـى ٢٠١٣، ليعلـن إحيـاء حُلـم الضبعـة النـووى فـى زمـن انتقالـي متوتـر ومنفلـت؛ لا يسـمح بجلـوس الأحبـة متجاوريـن ناهيـك ببنـاء محطـة نوويـة، لكنهـا النداهـة التـى اسـتحوذت علـى العقـول، والفتنـة الـتي اسـتولت علـى الأفعـال، والجملـة الخالـدة الـتي يحلـم كل منهـم برؤيتهـا «أنـا الرئيـس الـذى أدخـل مصـر العصـر النـووي».

عـاد عدلـي منصـور إلى مقعـده فـى المحكمـة الدسـتورية، ولم يسـأله أحـد عمـا أنجـزه فى مشـروع الفتنـة، وجـاء الرئيـس السيسـي مفعمًـا بحماسـة شـعبية اسـتثنائية، وفـوران إيجابـى متعطـش لمشـروعات كبـيرة، عطـش لم تـروِه قنـاة بحجـم قنـاة السـويس الجديـدة، الشـعب يقـول هـل مـن مزيـد، علاقتنـا مـع أمريـكا متوتـرة، روسـيا كثعلـب يقـظ يقـترب، يمكـن أن نفعـل الكثـير معًـا لنغيـظ أوبامـا وشـركاءه، صفقـات سـلاح، تبـادل تجـاري، مـاذا عـن مشـروع نـووي؟ إن الضبعـة تـكاد تنتحـر فـى المتوسـط كفتـاة تـردد عليهـا كثـيرون وألقـوا عليهـا المحبـة ثـم هجروهـا، فهـل تتحقـق الفتنـة أخـيرًا عـبر السيسـي وبوتـين؟

الأمل أن لا يحدث هذا.

لا أحد الآن يتحدث عن بناء محطات نووية لتوليد الطاقة الكهربائية غير مصر وأهلها، العالم كله يهرب من هذه المحطات الشريرة، كما يهرب العقلاء من وباء الإيبولا، ونحن نذهب إليها مهرولين كالمجاذيب، خذ عندك: بلد متقدم مثل تايوان، قرر فى أبريل ٢٠١٤ وقف بناء محطة نووية في البلاد بعد احتجاجات حاشدة من المواطنين؛ خوفًا من الآثار الصحية والبيئية المروعة، هذه احتجاجات سبقتها احتجاجات مماثلة بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩ فى إنجلترا وألمانيا وفرنسا، دول مثل السويد وإيطاليا وبلجيكا وإسبانيا أعلنت منذ عام ٢٠١٠ أنها لن تبني أى مفاعلات نووية جديدة، حتى بعد انتهاء العُمر الافتراضى للمفاعلات النووية العاملة على أراضيها، وهو العمر المحدد بثلاثين عامًا.

السؤال المنطقي باختصار.. لماذا نبدأ وبمنتهى الحماس والسعادة في ما هجره العالم المتقدم والحريص على شعوبه منذ سنوات؟!

ثم كيف يظل هناك حديث عن بناء محطة نووية في مصر، وبيننا عالم وكاتب فذ مثل د.محمد المخزنجى لم يمنحه الله الرؤية والبصيرة وحسب، بل جعله في قلب تجربة انفجار مفاعل تشرنوبل المروعة؟! وقد أوجزها فى كتاب بديع هو «لحظات غرق جزيرة الحوت»، لو قرأه أى مسؤول يعرف ربنا، لن ينام إلا بعد أن يعلنها للجميع «أي جحيم هذا الذي تريدون أن نذهب له»؟

obeikandl.com

المخزنجي الذي يكتب ببسالة، رافضًا بناء أى مشروع نووي فى مصر منذ عام ٢٠١٠ وحتى يومنا هذا، لم يكلف أحدهم خاطره، ويتصل به تليفونيًا ويسأله باعتباره رجلاً يكتب لوجه اللّه ويستشيره فى الأمر، وكأن قدر هذا البلد أن يقرأ المسؤولون ما يريدون أن يقرؤوه وحسب.. هذا إن قرؤوا.

أن تبدأ مصر في بناء محطة نووية هذا كابوس حقيقي، كل الأمل أن يراجع الرئيس السيسي هذه الاندفاعة نحو المجهول، في بلد يتحرك فيه مترو الأنفاق وأبوابه مفتوحة بسبب عطل كهربي عابر، و«يهبط» فيه الطريق بعد رصفه بساعات، كل الأمل أن يتجاوز الرئيس هذه الفتنة المزوجة دومًا بهدير الجماهير، وأن لا يسلِّم أذنيه لنداهة الرؤساء التى فتنتهم، فلا طالوها ولا قضوا عليها فصارت علينا كابوسًا مفتوحًا آن أوان أن يغلق إلى الأبد.

(كُتب هذا المقال قبل توقيع اتفاق تنفيذ محطة نووية بين مصر وروسيا في مدينة الضبعة.. وأعيد نشره هنا للذكرى الخالدة).

obeikandl.com

الخطاب الديني للرئيس السيسي

ثار الشعب على جماعة تستخدم الدين في كل ألعاب السياسة والنصب والاحتكار والقتل، فلماذا يلجأ الرئيس الذي انحاز للشعب في ثورته إلى إدخال الدين في معظم أحاديثه، حتى ولو كانت عن الفن؟

بعيدًا عن طبيعة تكوين الرئيس السيسي، وما إذ كانت سنوات عمره الأولى تشكلت في بيئة مصرية تقليدية تضع الدين في المرتبة الأولى، ويظهر في خلفية كل الأفعال والقرارات، فالشاهد أنه خلال سنوات عمله الطويلة في القوات المسلحة، تأصل لديه ذلك الشعور الديني المتزايد، كون أن العمل في الجيش تعلو فيه بشكل منطقي وطبيعي قيمة الدين؛ ذلك لأن العمل العسكري في مجتمعاتنا العربية يمزج بين الدافع الوطني والديني، ويعلي كثيرًا من قيمة الشهادة خلال الدفاع عن الوطن، الذي يتجلى غالبًا في العمل بالقوات المسلحة.

لاحظ أن كل رؤساء مصر السابقين، الذين اشتركوا في كونهم عملوا في الجيش، كانت خطاباتهم ممزوجة غالبًا باقتباسات دينية أو تدعو لقيم مستلهمة من الإسلام، كان الأمر متوازنًا إلى حد ما مع الرئيس عبد الناصر، الذي كان

obeikandi.com

يخوض حربًا داخلية مع الإخوان وأخرى مع إسرائيل، فلجأ إلى هذا الخطاب دون إفراط، لكن الأمر وصل إلى حدود «الدروشة» مع الرئيس السادات، الذي كان أول من مزج بين كلمتي «الرئيس» و«المؤمن»، والمفارقة أنه فعل ذلك بعد انتصاره في حرب أكتوبر، وبعدما سمح للإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى بهامش للعمل السياسي فوق الأرض، بينما بدأ الرئيس مبارك أول حياته السياسية كرئيس بعبارة شعبية ذات مدلول ديني بامتياز وهي عبارة «الكفن مالوش جيوب»، واستمر في هذا المنهج «الرباني» لسنوات، محافظًا على صورته أمام العامة؛ رئيس يحافظ على التقاليد الدينية والشعبية، وإن مال، منذ ظهور نشاط نجله الأصغر السياسي مع بداية الألفية الثانية، إلى التخفيف من هذه الصورة، ناقلا نفسه وأسرته إلى مستوى الأسر الرئاسية العصرية، التي تحافظ على القيم الدينية دون أن يعني ذلك التزامًا صارمًا بها في الخطاب والشكل.

لكن ماذا عن الرئيس السيسي؟

يبدو أنه يريد محاربة التطرف بالدين، هذا منهج سليم بكل تأكيد، لكن هل يصلح للتطبيق دومًا؟

كقائد سابق للجيش، وكرئيس جمهورية وصل لمنصبه بأغلبية كاسحة «٩٦٪»، يميل السيسي إلى خطاب مليء عادة بالنصح والإرشاد، هذا مفهوم، بسبب خلفيته العسكرية والدعم الجماهيري غير المسبوق الذي أتى به للمنصب الأهم في مصر، هذا مفهوم حتى لو كان للبعض تحفظ عليه، لكن أن يجنح الخطاب الرئاسي أحيانًا – وربما كثيرًا – إلى مساحة الوعظ

الأخلاقي، مستخدمًا الدين في ذلك، فهو أمر يستحق الوقوف عنده.

في حوار أجري معه مع بداية العام الجديد في جريدة الأهرام، دعا الرئيس رجال الأعمال أن يتبنوا مسابقة لأفضل فلاح وتلميذ وعالم، «أحسن ما تعملوا مسابقة لأفضل راقصة»، هذا توجه أخلاقي وقيمي حسن بكل تأكيد، لكن هذا دور الدولة، وليس رجال الأعمال، الذين من حقهم اختيار المجال الذي يستثمرون فيه أموالهم، طالما أنه مجال قانوني لا تجرمه الدولة، ثمة دور اجتماعي يجب على الأثرياء أن يقوموا به، هذا حقيقي، لكن البيزنس كما الحياة اختيارات، برنامج لأفضل راقصة، لابد وأنه سيجلب إعلانات لا تقارن بتلك التي يمكن أن يجلبها برنامج آخر عن أفضل فلاح، هذا عن البيزنس، هذا طرح يمكن أن يخرج من رجل دين يرى أن ذلك حرام وذاك حرام، لكن ما علاقة رئيس الجمهورية بتحديد «الأكثر ملائمة لأخلاق المجتمع»؟.

في احتفالات عيد الشرطة عام ٢٠١٥، وجه خطابًا مباشرة للفنانين يسرا وأحمد السقا الحاضرين في القاعة قائلا: «والله ربنا هيحاسبكم»، قاصدًا إذا قدموا فنًا لا يدعو للأخلاق،.. حسنًا هذا خطاب ديني يليق بداعية عصري يشاهد السينما، ويكتب الروايات ويصادق الفنانين مثل عمرو خالد، لكن من قال إن من سلطات رئيس الجمهورية أن ينذر الشعب بين الحين والآخر بأن «ربنا سيحاسبهم»؟

الناس تحب السيسي واختارته عن وعي وإدراك بأنه الأنسب لهذه المرحلة الحرجة، هذه حقيقة لا تحتاج إلى كثير

من الوعظ لتأكيدها، كل الأمل إذن أن يدرك الرئيس السيسي أن محاربة الإرهاب وتجديد الخطاب الديني - وهما مهمتان ثقيلتان حقًا أعانه وأعاننا الله عليها - لا يستوجب - مطلقًا - أن يتحدث الرئيس- أي رئيس - دومًا إلى الشعب بأن «ربنا هيحاسبنا».

obeikandl.com

..لكن من سيأتي إذا «مشى» الرئيس؟

يمكـن تفسـير العبـارات الصادمـة، الـتي خـرج بهـا الرئيـس السيسـي عـن نـص الكلمـة المكتوبـة فـى الاحتفـال بالمولـد النبـوي في نهايـة عـام ٢٠١٥، الـتي قـال فيهـا إنـه على استعداد للرحيـل فـورًا مـن منصبـه، إذا طالبـه الشـعب كلـه بذلـك، علـى أكثـر مـن اتجـاه، منهـا مـا يلـي:

١. الرئيس السيسي زهق.

٢. الرئيـس السيسـي مسـتاء مـن دعـوات تقليديـة بالتظاهـر في ذكـرى ثـورة ينايـر.

٣. الرئيـس السيسـي يحـذر الشـعب مـن ثمـن رحيلـه المفاجـئ عـن ا لحكم.

٤. الرئيـس السيسـي يواجـه أعداءه مسـتدعيًا الشـعب الـذي اختاره.

٥. الرئيـس السيسـي باعتبـاره ضابـط جيـش، وليـس سياسـيًا تقليديًـا يحـب المواجهـات المباشـرة، واللعـب ع المكشـوف.

٦. الرئيـس السيسـي يشـعر بالإرهـاق بعـد خمسـة أعـوام صاخبـة، منـذ ينايـر٢٠١١، كان متورطًـا فيهـا دومًـا بـدور رئيسـي وبـارز في المشـهد، يمكـن أن تختـار تفسـيرًا واحـدًا ممـا سـبق، أو

obeikandi.com

جميعها فى محاولة لفهم ما جرى، لكن الأكيد فى هذا التفسير أو ذاك، أن الرئيس السيسي جاد فعلا فى قوله بأنه على استعداد لترك منصبه إذا استدعى الأمر ذلك، لأن عهدنا به دومًا أنه لا يُهرج فى الجد، وليس من هواة إطلاق فقاعات الاختبار.

بل هو من أنصار القول الحاسم والفعل الحقيقي على الأرض و«الثلاث سنين يبقوا سنة حضرتك» كلما خاطب مسئولا عن تنفيذ أحد المشاريع، فيما يعكس ليس فقط رغبته فى الإنجاز، وإنما استعجاله فى الانتهاء من المهمة قبل وقتها المحدد، السيسي إذن لديه هاجس الوقت والرحيل. هو أيضا كان شاهدًا على ما جرى خلال السنوات الخمس الأخيرة من قيام وانهيار نظامي حكم فى مصر، بدا وأن كليهما يحمل فى داخله كل مقومات الصمود والاستمرار أبدًا، ورأى بعينيه، قبل أن يعرف بحكم منصبه السابق رئيسًا للمخابرات الحربية، كيف يتغير مزاج الشعب من اليمين إلى اليسار وبالعكس، فالشعب الذي رحّب بدبابات الجيش حينما نزلت إلى الشارع عقب ٢٨ يناير ٢٠١١، هو نفسه الذي خرج بعد ذلك بعدة أشهر يطالب برحيل المجلس العسكري، والشعب الذي انتخب بنفسه قيادي إخواني فى منصب رئيس الجمهورية، هو نفسه الذي خرج إلى الشارع ليطيح به من منصبه، وهو يدرك أن الثمن سيكون غاليًا من الدم والحرية، السيسي نفسه الذي هو جزء من هذا الشعب متقلب مزاج، صاحب مزاج متقلب أيضًا، يظهر ذلك فى علاقته مع قطاعات من شباب ٢٥ يناير، الذي كان محاورًا ومحتضنًا لهم عقب الثورة، ثم توترت العلاقة بينهم لاحقًا،

ويظهر هذا أيضًا فى علاقته مع الإعلام التى تروح وتغدو بين القرب والبعد، والودّ والتشكك، معظم أعداء الرئيس فسروا انفعاله خلال الخطاب وحديثه عن استعداده للرحيل، بأنه قلق من خروج مظاهرات شعبية حقيقية فى ذكرى ثورة يناير، وذلك رغم أن الحسابات العملية على الأرض لا توحي بذلك على الإطلاق، لكن حديث الرئيس السيسي، على غير ذلك لم يعكس قلقًا وحسب، بل ضيقًا وتبرُّمًا. هو يظن بأنه بعد عام ونصف من استقراره فى الحكم، لن يواجه نفس التكنيك الذي هز أركان دولتي مبارك والإخوان، حتى ولو كان هذا التكنيك لن يصلح معه هو، اعتقد أنه قد يواجه ترهل أجهزة الدولة أو فسادًا ضاربة جذوره أو طريقة تقليدية فى إدارة الأزمات، لكن أن يعود إلى نفس بؤر التوتر قبل خمس سنوات، كان هذا ما لم يتوقعه أو يرغب فيه أو يريده، أغلب الظن أن الرئيس السيسي يفضل مواجهة الإرهاب الصريح المباشر، عن موجات هجوم أو سخرية أو انتقاد تطوله عبر الإنترنت، وتوحي بأن هناك حالة من عدم الرضا تجاه طريقة إدارته للحكم، فالعدو فى الحالة الأولى معروف، ثم أنه يضمن أن يكون كل الشعب خلفه فى معركته هذه، أما فى معركة هدم الحكم، فإن اللعب على احتياجات الناس، وآمالهم وتطلعاتهم لحياة أفضل، لا تتحقق بين يوم وليلة، يزيد من حساسية المواجهة وتوترها ودقة حساباتها ونتائجها، وهذا أمر استدعى الروح العسكرية، التي تقول التعليمات إنها يجب أن تكون فى أفضل جاهزية طوال الوقت بحكم أن الحرب لحظة، هكذا رغم وجوده لأكثر من ١٨ شهرًا فى السلطة، فإن الطبيعة العسكرية لا تزال غالبة

Obeikandl.com

على السمات السياسية لدى الرئيس السيسي، وحينما قال إنه سيترك الحكم إذا أراد الشعب ذلك، استدعى طبيعة المواجهة العسكرية، بينما لو استمع قليلا لصوت السياسي الخافت فى داخله، لنصحه بأن يتجاهل الأمر قليلا، ولا يصنع من معركة صغيرة ساحة حرب متسعة، المدهش أن معركة الرئيس السيسي الحقيقية، ربما لا تكون فى مواجهة دعوات بالتظاهر ضده أو الرد على انتقادات لطريقة حكمه، وإنما فى أن يصنع مناخًا سياسيًا حقيقيًا يجعل غيابه عن السلطة – سواء تم ذلك فى الموعد المقرر أو قبله لأي سبب عارض – أمرًا يمكن التكيُّف عليه، وإعادة ترتيبه بما لا يهز أركان دولة لن تتحمل المزيد من الزلازل، بصريح العبارة فإن المعركة الرئيسية هى أن يساعد الرئيس السيسي فى تهيئة التربة التي تنجب الكفاءات والثقات، التي يمكن أن يأتمنها الشعب على منصب رئيس الجمهورية، مثلما ائتُمن عليه السيسي فى لحظة مليئة بالأفخاخ والمصائب والسماء، التي تنذر برعب قادم.

أي أن المعركة هي أنه عندما يقول الرئيس السيسي فى لحظة زهق أو صدق أو تعب بأنه «ماشي»، فإن الشعب لن يغرق فى «حيص بيص» متسائلا: إذن من سيأتي؟ المأزق هنا يتعلق بأننا نطالب قائدًا ذا صفات عسكرية محترفة بصناعة مناخ سياسي سليم.

حدث هذا من قبل في دول أخرى، حتى أن أحد مصوغات التقديم الإعلامي للسيسي مرشحًا رئاسيًا، كان في طرح أسماء مثل الجنرال الفرنسى شارل ديجول، الذى حكم بلاده بعدما

كان عسكريًا محترفًا ساعيًا لتهيئة أجواء ديمقراطية راسخة، وجورج واشنطن أحد قيادات الحرب الأمريكية الذى أصبح أول رئيس لبلاده لاحقًا، ويعد أحد الآباء المؤسسين للقيم الأمريكية فى الحريات والديمقراطية، المهمة ليست مستحيلة على الرئيس السيسى إذن، فقط تحتاج أن يدرك أن هذه هى معركته الأُم، وأن يدرك أيضًا أن هذه من المهام المعمرة التى تحتاج إلى سنوات طويلة، ولا يمكن أن تعالج على طريقة «هنخلى التلت سنين، سنة واحدة يا فندم»، وأنها كذلك مهمة قد لا تنتهى وهو فى منصبه، لكنه إذا وضع الأساسات الراسخة التى يمكن البناء عليها خلال فترة أو فترتى حكمه، سيكون وفر على هذا الشعب الكثير من علامات الاستفهام الغامضة، التى تلاحق السؤال الملغم: مَن يحكُم حين يغادر الرئيس السيسى منصبه؟

OpenKandil.com

obeikandl.com

ركن الشعب

obeikandl.com

obeikandl.com

ما فعله المصريون بـ«زارا»

لا أحـد يمكنـه أن يتخيـل رد فعـل الخواجـة الأسـباني «أمانسيو أورتيجـا»، إذا مـا حـل ضيفًا علـى القاهـرة، ثـم سـاقه القـدر في جولـة في بطـن البلـد، ليجـد نفسـه في ميـدان رمسـيس يراقـب القادمـين مـن كل فـج عميـق.

الدهشـة الـتي سـتصيب الجـد الإسـباني «عمـره الآن ٧٩ عامًـا»، ليسـت في الفوضـى أو الدوشـة أو الزحـام أو صـوت صافـرات القطـارات المختلطـة بكلاكـس الميكروباصـات، وليـس في أنـه لا يفهـم لمـاذا يهـرول النـاس جميعًـا، وهـم يصرخـون كأنهـم يهربـون مـن الطاعـون، وليـس في طبيعـة النـداء الـذي يـتردد مـع كل طلعـة نفـس «واحـد عبـود وطالـع»، أو «خـش رابـع ورا يـا أسـتاذ»، وإنمـا فيمـا سـيراه مـن انتشـار لافـت لعلامتـه التجاريـة فائقـة الشـهرة «زارا– ZARA» علـى كثـير مـن مؤخـرات السـائرين.. فـوق البنطلـون طبعًـا وليـس شـيئا آخـر.

حينهـا سيتشـعبط «أورتيجـا» في أي أتوبيـس متجـه إلى مدينـة نصـر، ليصـل متلهفًـا إلى أحـد الفـروع الخمسـة لسلسـلة محلاتـه الاسـبانية الشـهيرة الموجـودة في المحروسـة، ليدخـل علـى مديـر الفـرع قائـلا لـه في سـعادة: «فيفـا إيجيبـت.. كل دول حبـوا زارا..

كل دول البسوا زارا.. بعنا بكام خبيبي النهاردة؟»، سيرد المدير متوترًا: لسه بنرش يا خواجة، فيتساءل الأخير مندهشًا: «إزاي خبيبي.. أنا شفت مصريين البسوا بناطيل زارا أكتر من اللي شفتهم في إسبانيا»، هنا سيميل المدير المصري الشهم على مساعده هامسًا له: اتصل بالاسعاف يلحق ييجي على بال ما أشرح للخواجة.

دع الخواجة «أورتيجا» يكتشف صدمته في أن معظم، إن لم يكن كل من شاهدهم، يرتدون بنطلون «زارا» في شوارع مصر، اشتروا الحتة منه بأقل من ١٠٠ جنيه «كاتب هذه السطور يرتدي واحدًا بـ٨٥ جنيهًا»، أي بسعر يقل عن ٢٥٪ من قيمة البنطلون «الزاراوي» الأصلي، وأن هذه «البناطيل»، لا تباع في محلات زارا الخمسة «الأورجينال» فحسب، وإنما في نواصي الشوارع وفي قلب سوق الترجمان، وفي محلات «خد فكرة واشتري بكرة»، وتعال لنعرف ما الذي فعله المصريون بالضبط في «زارا» درة علامات الخواجة الأسباني.

افتتحت زارا أول فروعها في إسبانيا عام ١٩٧٥، الآن وبعد نحو ٤٠ عامًا، تمتلك سلسلة محلات الملابس الشهيرة هذه نحو ١٥٠٠ فرع في العالم، وفي منتصف عام ٢٠١٥، أُعلن أن صافي أرباح الشركة عن أول ثلاثة أشهر من العام تجاوز نصف مليار يورو بقليل، تعرف زارا بأنها لا تعتمد على الإعلانات التقليدية، وإنما على جودة منتجاتها غالية الثمن، وبالتالي صناعة دعاية نخبوية بين القادرين على الشراء، والذين يستوعبون أن قطعة الملابس التي يشترونها من هذا المحل تحتاج إلى ستة أشهر

obeikandl.com

كاملة، منذ كونها فكرة في دماغ المصمم حتى وصولها إلى البائع. هكذا يصبح من الطبيعي أن تكون أسعار بعض ملابس زارا تساوي تقريبًا الحد الأدنى الشهري للأجور في مصر «١٢٠٠ جنيه لو كنت ناسيا»، هل يتقبل المواطن المصري هذه الحقيقة ويصمت؟ طبعا لا.

هكذا انضربت العلامة التجارية العالمية في مصانع «الجينزات» المعروف منها والمضروب، وصار من حق أي مواطن يلامس الحد الأدنى أن يتباهى بأنه يرتدي بنطلون زارا مثله في ذلك مثل أي رائد من رواد فروعها الـ١٥٠٠ على ظهر هذا الكوكب، طبعًا الموديل الواحد من هذه الملابس لاياخد أكثر من ثلاث دقائق تفكير في مخ الأسطى علاء الترزي قبل أن يتحول إلى بنطلون يسر الناظرين ويرتديه أبناء الطبقة الوسطى، وما تحتها ويصيب الخواجة «أورتيجا» بالذبحة الصدرية.

هل هذا سرقة أم فهلوة أم انتقام البسطاء من الأغنياء؟

هذه قضية أخلاقية اقتصادية في العالم كله، ولا تنفرد بها مصر وحدها، حتى أن كتابًا ممتعًا هو «المخبر الاقتصادي»، صدرت ترجمته العربية عام ٢٠١٣ عن دار كلمات، أفرد فيه مؤلفه «تيم هارفورد» فصولا لمناقشة هذه المعضلة «هل من حق من لا يملكون المال الكافي أن يشتروا نسخًا غير أصلية من ماركات عالمية بجودة معقولة وبسعر أقل»، ضاربا المثل بأن شركة كبرى مثل «IBM» تنتج نوعين من طابعات الليزر في خط إنتاج واحد، لكنها تبيع الأولى بسعر أعلى من الثانية بكثير، رغم أنها من نفس المكونات، فقط لأنها تضع في الطبعة

obeikandl.com

الرخيصة، شريحة تقلل من سرعة الطبع، فيشتريها المستخدم سعيدًا بأنه ضحك على «IBM» بينما هي التي ضحكت عليه وكركرت.

هل هذه دعوة لدعم السلع المضروبة؟ والله أنت وميزانيتك، لكن الأمر في الأساس له علاقة بأن الأمور دومًا لا تسير فيها الأخلاق إلى جانب البيزنس، وأن الجميع «الشركات والبشر» في حالة نصب متبادل طوال الوقت.

بارك الله لكم في بناطيل زارا الأصلية والنص نص، ولا تنسوا الدعاء للخواجة «أورتيجا» بالشفاء من الذبحة.

obeikandl.com

عودة ماكدونالدز

في أكتوبر عام ٢٠٠٠، كانت الانتفاضة الفلسطينية في ذروتها، حتى أن صداها وصل إلى مدينة المنصورة الغافية على نهر النيل، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من الأرض المرتجة تحت أقدام الإسرائيليين، فما الذي حدث؟

كانت المظاهرات الهادرة المتضامنة مع أهالينا في فلسطين- رحم الله هذه الأيام العظيمة التي كانت فيها فلسطين ولو محتلة كيانًا واحدًا، لا كيانين أحدهما في رام الله والآخر في غزة - تخرج في جميع أنحاء جامعة المنصورة، تجوب الشوارع الداخلية المتسعة، وتهتف باسم الوطن المسرق، ضد الاحتلال الإسرائيلي القاتل، وكلما تحركت المظاهرات اتسعت رقعتها، وانضم إليها المزيد من الطلاب، حتى وقفت على أبواب الجامعة تهدر وتريد الخروج إلى الشارع للالتحام مع مسيرات شعبية أخرى، خرجت تلقائية تهتف باسم فلسطين. المهمة فشلت قطعًا، إذ شكّل الأمن حاجزًا قويًا يمنع التحام المسيرات في زمن كان فيه تجمع خمسة تهمة تستحق الاعتقال بحكم قانون الطوارئ، هكذا وجد المتظاهرون في داخل الجامعة المشهد وقد انتهى مبكرًا، لزامًا على قادتهم- ومعظمهم من طلاب جماعة الإخوان- أن يبحثوا عن تطور درامي آخر.. فكان ماكدونالدز.

obeikandi.com

افتتح فرع سلسلة المطاعم الأكثر انتشارًا في العالم «ماكدونالدز» في المنصورة عام ١٩٩٩، كان هذا من الفروع المبكرة، التي افتتحت خارج القاهرة والإسكندرية، بعدما افتتح أول فرع في مصر عام ١٩٩٤، كان اختيار المكان دقيقًا، في مواجهة البوابة الرئيسية للجامعة، حيث الشباب والمغامرة وروح التجريب، هكذا تحول ماكدونالدز المنصورة إلى مكان للقاء الأصدقاء والعشاق ومحبي الطعام السريع والإيقاع الأمريكي، وهي كلها أشياء مباحة كما ترى، لكن قادة المظاهرات – وهم من الإخوان للتأكيد مرة أخرى – قرروا أن يضعوا ماكدونالدز في سكة السياسة، باعتباره رمزًا أمريكيًا، وأمريكا تدعم إسرائيل، وإسرائيل تقتل اشقاءنا في فلسطين.. هجووووم.

هكذا في ذروة حمية شباب مختلطة بحماس ديني وبعض من العبارات القومية، والإشعاع السيكوفيزيائي الذي يولد من رحم التجمعات، اقتحم المتظاهرون فرع ماكدونالدز المنصورة، وحطموا أبوابه وواجهته، وصارت ضحكات وأفراح ومعاتبات وقصص اللقاء والوداع، التي شهدها المطعم أثرًا بعد عين، ناهيك أن العاملين فيه أصبحوا في لحظة «على باب الله»، وكان منطقيًا جدًا على أصحاب استغلال العلامة التجارية أن يغلقوا فرع ماكدونالدز المنصورة بالضبة والمفتاح، وهم يضربون كفًا بكف ولا يفهمون، لماذا حطّم المتظاهرون ماكدونالدز وتركوا إلى جواره مباشرة «كنتاكي» دون أن يمس، رغم أن الاثنين لهما أصول أمريكية، ووكيلهما المصري رجل أعمال واحد؟ هل يحب المتظاهرون الدجاج فتركوا كنتاكي، ويكرهون البرجر فهدموا ماكدونالدز؟ هل الدفاع عن فلسطين يبدأ من التوقف

عـن تنـاول «الهابـي ميـل»، والتهـام «سـناك بوكـس»؟

استغرق الأمـر ١٤ سـنة لنعـرف جميعًـا الإجابـة علـى هـذه الأسـئلة الملغـزة.

قبـل شـهر، وإسـرائيل تـدك غـزة دكًا، وتمـارس نشـاطها الإجرامـي المعتـاد في قتـل الأطفـال واصطيـاد العـزل والنسـاء، وهـدم البيـوت علـى أسـر بأكملهـا باسـتخدام الطائـرات الحربيـة، وسـط هـذه المعمعـة الـتي راح ضحيتهـا أكثـر مـن ٢٠٠٠ شـهيد فلسـطيني– لم يصـل عـدد شـهداء الانتفاضـة الثانيـة ربـع هـذا الرقـم – تم افتتـاح فـرع ماكدونالـدز في المنصـورة مـن جديـد، وفي نفـس المـكان الـذي أغلـق فيـه منـذ ١٤ عامًـا، ليصبـح الفـرع رقـم ٧٥ لسلسـلة المحـلات الأمريكيـة الأشـهر في مصـر.

هكـذا أغلـق ماكدونالـدز في عـز حـرب إسـرائيلية علـى الفلسـطينيين، وأعيـد افتتاحـه في ذروة حـرب إسـرائيلية أخـرى علـى الفلسـطينيين، فمـا الـذي تغـير بـين الحربـين؟ هـل أدرك أهـل المنصـورة – وهـم جـزء مـن أهـل مصـر– أن المعركـة بـكل تأكيـد ليسـت في غلـق وفتـح ماكدونالـدز؟ وأن الموضـوع أكثـر تعقيـدًا وعمقًـا؟ ربمـا، هـل عـرف أحدهـم بتلـك المعلومـة الـتي تقـول بـأن ماكدونالـدز رفضـت افتتـاح فـرع لهـا في مسـتوطنة «ارئيـل» بـرام اللّه عـام ٢٠١٣؛ لأنـه قائـم علـى أرض محتلـة؟ يمكـن، هـل قـرأ أحـد عـن قـرار مقاطعـة الاتحـاد الأوروبـي لمنتجـات المسـتوطنات الإسـرائيلية، وهـو مـا يكبـد إسـرائيل خسـائر سـنويًا ٥ مليـارات دولار»، الاتحـاد الأوربي يسـتورد ٣٢٪ مـن صـادرات تـل أبيـب»؟ وهـو مـا يعـني أنـه ليـس كل ماهـو غربـي هـو شـيطان بالضـرورة؟

احتمال، هل الهزة العنيفة، التي قطعت جذور الإخوان في المجتمع المصري عقب ٣٠ يونيو وما قبلها، حالت دون امتداد أي تحركات وأفعال ظاهرية كانت الجماعة تستخدمها للإيحاء بقدرتها على الحشد والتأثير، متمثلة في قوائم المقاطعة التي اختلط فيها البيزنس بالسياسة بالدين عن عمد؟ يجوز.

كل الاحتمالات واردة.. بالمناسبة متى آخر مرة تناولت فيها طعامًا في ماكدونالدز؟

obeikandl.com

قيام وانهيار آل نوكيا

فى عام ١٩٩٨ كان الموبايل فى مصرِ وسيلة للتمايز الطبقى، بعدما ظهر فى الأسواق لأول مرة، لمَ لا وقد كان ثمن الخط حينها ١٢٠٠ جنيه - أى الحد الأدنى للأجور فى يومنا هذا!- وكان سعر جهاز التليفون نفسه يقترب من ألفى جنيه.

دعك من أن ثمن الدقيقة الواحدة من تليفون لآخر كان ١٧٥ قرشًا، وهو رقم يتيح لك حاليًا الحديث لثلاث ساعات يوميًا دون انقطاع إلا إذا أُصيبت أذناك بالتهاب حاد، أو انفجر التليفون بسبب ارتفاع درجة حرارته من طول الاستخدام!

فى هذا الزمن غير البعيد كان تليفون «نوكيا» هو نجم المرحلة، بحجمه الكبير والإريال الضخم الذى يخرج من أعلاه، وأزراره الضخمة، وشاشته الرمادية الصغيرة، التى تقرأ فيها الحروف والأرقام بالكاد.

لكن ذلك الاختراع الفنلندى العجيب هز المجتمع المصرى هزًا، صحيح أنه لاقى منافسة قوية من اختراع سويدى لا يقل عجبًا هو «إريكسون».

لكن سهولة استخدام «نوكيا»، وظهوره فى السوق أولا، وتقديم شركته لموديلات متعددة فى فترة زمنية قصيرة، جعلت

هذه العلامة التجارية «عمدة» التليفونات المحمولة فى بر مصر، فما الذى حدث بعد ١٥ عامًا فقط من هذا التاريخ؟!

صار تليفون «نوكيا» الآن «عجبة» السوق لا «أعجوبته»، وبات ينظر على نطاق واسع لمن يستخدمه بأنه لا يزال يعيش فى سنوات التسعينيات من القرن الماضى.

صحيح أنه لا يزال موجودًا فى فئة التليفونات رخيصة الثمن، لكن الوحش القادم من كوريا الجنوبية، والذى استحوذ على المساحة العظمى من السوق ويعرف باسم «سامسونج» لم يترك «نوكيا» المسكين وحيدًا حتى فى سوق التليفونات الرخيصة، بعدما فرمه فرمًا فى سوق التليفونات الذكية المتقدمة ابتداء من عام ٢٠١٠.

الغريب أن الناس - فى معظم دول العالم وليس فى مصر فحسب - ودّعت «نوكيا» وداعا قاسيا لا يليق بشركة جعلت العالم أقرب بالفعل.

حتى إن أصحاب «نوكيا» أقاموا الأفراح والليالى الملاح بعدما نجحت شركتهم فى تحقيق مبيعات مرتفعة نسبيا أخيرًا عام ٢٠١٣ داخل أمريكا، مكنتهم من الوصول إلى المركز الرابع من حيث حجم المبيعات لأول مرة منذ سنوات بعد «آبل» و«سامسونج» و«إل جى».

أين الخلل؟

واضح كما ترى، أن «نوكيا» أصيبت بهذا المرض الذى يصيب البشر والشركات والأمم، ذلك المرض المعروف باسم التكلس والترهل والغرور والارتكان إلى الماضى وعدم توقع المستقبل.

وهو أمر جعلها تتعامل مع قفزة «الهواتف الذكية» بشكل خاطئ ظنًا بأنها «موجة وهتعدى»، فما كان من هذه الموجة إلى أن تحولت إلى بحر واسع ابتلع «نوكيا» تقريبًا، ولما حاولت مقاومة الغرق عن طريق شراكة مع كيان آخر متقدم، لكنه كان يعانى بدوره من عثرات مثل «مايكروسوفت»، الوقت كان قد فات، والسوق استقرت، والسمعة ترسخت فى أذهان المشترين.

حتى إن «مايكروسوفت» – ذلك الوحش التكنولوجى العملاق– بعدما استحوذ فى أوائل شهر مايو الحالى على قطاع إنتاج الموبايلات فى «نوكيا»، مقابل ٥٫٣ مليار يورو «من بينها ١٫٦ مليار يورو لبراءة الاختراع فحسب»، اتخذ أصحابها القرار الصعب: إعلان وفاة علامة «نوكيا» للهواتف المحمولة، والبحث عن علامة تجارية جديدة يتم تقديمها إلى السوق مقترنة باسم «مايكروسوفت».

هل خرجت المسيرات الغاضبة فى فنلندا – الموطن الأصلى لـ«نوكيا» – أو فى باقى بلدان العالم المحبة لهذه العلامة التجارية التى جرت عبر هواتفها ولسنوات طويلة آلاف المؤامرات والصفقات وقصص الحب والخيانة وأخبار الفرح والموت؟.

لم يحدث ذلك ربما لأنهم أدركوا الخطيئة التى وقعت فيها شركتهم الكبرى، وأنه آن أوان دفع الثمن دون أى حديث عن انهيار قلاع الصناعة والوطنية. هل أحس العالم بأن «نوكيا» تودع الحياة، وأن من يملك تليفونًا يحمل اسم هذه العلامة التجارية سيصبح أثرًا نادرًا بعد سنوات، ودليلا يمكن تدريسه فى الجامعات عن قيام وانهيار المؤسسات الكبرى؟.

ربما يحدث هذا عندما تكشف «مايكروسوفت» فى القريب عن اسم هاتفها الجديد، ودفن «نوكيا» إلى الأبد، وحينها ربما ينتبه العالم إلى العظة الكبرى مما حدث: الكيانات الكبرى تزول حينما لا ترى إلا نفسها، ولا تدرك فى أى عالم جديد هى تعيش.

هذه عظة على الجميع أن يفهمها جيدًا، ويعي دلالاتها بوضوح ودون التباس، يستوي في ذلك الذين يعيشون في ركن الرئيس أو الذين يعمرون ركن الشعب، حتى لا نفاجأ بطرف منهم ذات يوم يبحث في السوق عن موبايل نوكيا، غير مدرك أنه ليست «نوكيا» وحدها التي انقرضت.

obeikandl.com

فرنشايز يافندم؟

باعتبارها المرة الأولى التي أزور فيها أمريكا في حياتي- والأخيرة حتى يومنا هذا للأسف- وفي أول ليلة لي في «واشنطن دي سي» رحت - مثل أي شرق أوسطي بائس - أبحث في جنون مثل المدمن الذي يبحث عن "الكلة" تحت الكباري، عن مطعم ماكدونالدز الشهير.

كان هذا في شتاء ٢٠١٣، وشوارع العاصمة الأمريكية في المساء خاوية، وتصلح كل زاوية فيها لجريمة قتل مثالية، وهكذا لم يكن لدي أوبشن أن استوقف أحدهم لأسأله «فين ماكدونالدز يا جماعة.. ده الواحد في مصر بيتخبط فيه أكتر من محلات الفول والطعمية»، ثم أخيرًا وبعد بحث، وجدته على ناصية شارع هادئ بدرجة مرعبة، بلا أي إضاءة مبهجة، وإنما بضوء «سهاري» أصفر كئيب، دفعت باب المطعم في بطء لعلهم أغلقوا، لكني وجدت العمل ساريًا على إيقاع موسيقى جاز «حزايني" تثير الشجن.

طلبت ما أعرفه من قائمة المطعم في مصر بإنجليزية تعاني من الأنيميا، وخلال تناولي الساندويتش، الذي اكتشفت أنه أقل جودة من نظيره المصري تأملت المكان بتركيز أكثر،

obeikandi.com

لأكتشف الحقيقة.. «إحنا انضحك علينا يا رجالة». سلسلة المطاعم الأمريكية الشهيرة التى يعتبر قطاع كبير منا ذهابه إليها فى مصر احتفالا وطقسًا مبهجًا، يجعلنا نأكل على طريقة الأمريكان، ونلامس حدود الطبقات اللى فوق، ليست سوى مكان لتجمع البائسين والمشردين فى ليالي واشنطن الباردة، ومطعم للفقراء من الأقليات السود، والعابرين، والبؤساء أمثالى.

اللافت، أن «كنتاكى» ابن عم «ماكدونالدز» والذى كان لفترة أيضا للعديد من المصريين هو مطعم الدجاج ابن الناس ذو الجذور الأمريكية، لم «اتكعبل» فى فرع واحد له على الأراضى الأمريكية خلال ٢١ يومًا قضيتها هناك، لفيت فيها نحو ثماني مدن أمريكية فى الشرق والغرب.

ما السر إذن فى تباين درجة التقدير لمطعم هنا ومطعم هناك، أو للدقة لعلامة تجارية هنا وأخرى فى مصر؟ إنه الفرنشايز يا فندم.

الكلمة أصلها فرنسى، لكن من جعل لها معنى عالميًا عابرًا للقارات هى أمريكا، وهل هناك من يقدر على ذلك سواها؟

بعد انتهاء الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة «١٨٦١–١٨٦٥»، اكتشف المتصارعون أن بلادهم شاسعة وممتدة، وهذا زمن بلا قطار سريع أو هواتف محمولة، هكذا فى عام ١٨٧١، ولد مصطلح «الفرنشاير»، وهو يعنى حرفيًا «حق الامتياز»، العم «جوزيف» – على سبيل المثال – أسس مطعمًا فى سان فرانسسكو باسم «كشرى جوزيف»، لكنه يريد أن يبيع منتجه فى نيويورك، والمسافة بعيدة، حسنًا، سيشترى منه «بروس» حق امتياز «كشرى جوزيف»، ويفتتح بالاسم نفسه سلسلة محلات فى نيويورك

مستفيدًا من شعبية العلامة التجارية الأصلية، مقدمًا منتجًا يكاد يتطابق مع المنتج الأصلى مقابل نسبة يتم الاتفاق عليها.

ظهر الفرنشايز فى مصر فى نهايات السبعينيات، كان هذا زمن الانفتاح على كل ما هو قادم من الغرب، فوجد الفرنشايز لنفسه موطنا أصيلا فى بلادنا، وقطعًا كانت البداية عبر محال الطعام، وظل هذا هو الحال لسنوات طويلة، حتى بدأ حق الامتياز يدخل على خجل فى مجالات أخرى ظل معظمها استهلاكيًا، أو يقوم على نظرية «كيف أسرق كل ما فى جيبك وأنت سعيد»، مثله فى ذلك، مثل سلسلة «الهايبر ماركت» الفرنسية الشهيرة، التى ظهرت في مصر مع بداية الألفية الثانية.

توسعت ظاهرة الفرنشايز فى عالم يهوى «الماركات» والعلامات التجارية الشهيرة، ويتفاخر فيه القوم بأنهم يرتدون ملابس أصلها فرنسى ويأكلون فى مطعم أصله إيطالى، ويلعبون الجيم فى مركز تدريب تمتد أصوله لإسبانيا، حتى وصل الأمر إلى تأسيس «الاتحاد الدولى للفرنشايز»، والذى يذكر موقعه الإلكترونى أن هناك ٩٣ مجالا يمكن أن يدخل فى لعبة حق الامتياز هذه، بدءً من المطاعم وحتى مراكز رعاية الأطفال مرورًا بالملابس والأثاث وخدمات البيئة، وحتى محلات الحلاقة وتشغيل الخادمات!

هذا نمط حياة عصرى وكده؟ وارد.. لاحظ أن العلامات التجارية فى مصر ذات الأصل «الفرنشايزي» أو الأجنبي تمثل ٥٨٪ من العلامات الموجودة فى السوق، بينما النسبة الباقية «٤٢٪» محلية الأصل، وأن الفرنشايز يدر مبيعات سنوية تقدر بـ١٢ مليار جنيه، ويوفر نحو ١,٥ مليون فرصة عمل للمصريين، حسنًا أين المشكلة؟

المشكلة فى تحول «الفرنشايز» إلى أسلوب حياة، الأمر الذى يفرم المنتجات المحلية فرمًا، خصوصًا فى مجتمعات اقتصادها بعافية مثل مصر، ويجعلها تجاهد حتى تجد لها مكانًا فى السوق، رغم أن جودتها فى كثير من الأحيان تؤهلها للمنافسة، لكن الفرنشايز له سحر خاص يجعله يكسب المعركة قبل أن تبدأ.

ليس هذا فحسب، وإنما الأخطر فى أن يتلون الفرنشايز بالتوجهات السياسية، وهذا يحدث تحديدًا فى مجال وسائل الإعلام، التى دخلت سوق «حق الامتياز» منذ سنوات، وهو أمر مرعب فعلا، لأنه يحول الخبر والرأى إلى سلعة يشتريها ويلونها على هواه من يستطيع أن يدفع ثمن «الفرنشايز»، مع اتفاق ضمني بأن صاحب العلامة التجارية الأصلية يمكن أن يغمض عينيه عن بعض أو كثير أو كل التجاوزات فى مقابل الدولارات التى سيحصل عليها.

هكذا مثلا تجد أن فضائية إخبارية مثل «سكاى نيوز عربية» وهى «فرنشايز» لسكاي نيوز الإنجليزية الشهيرة، تختار منهجًا واضحًا فى تغطيتها لأخبار المنطقة، هى منحازة للدولة المصرية فى معركتها على الإرهاب «تشكر على ذلك قطعًا»، وتدعم الحرب السعودية على الحوثيين فى اليمن، وتبدو فى مواجهة نظام بشار الأسد فى سوريا، فهل هذه هى طريقة "سكاي نيوز" الأم فى تغطيتها للأحداث نفسها؟ قطعًا لا. لكنها فلوس «الفرنشايز» يا أستاذ.

خذ عندك أيضًا، النسخة العربية من موقع «هافنتجون بوست» الأمريكى الشهير، والذى انطلق منذ أسابيع، برئاسة

تحرير صحافى فلسطينى عمل فى السابق رئيسًا لشبكة الجزيرة، طبعًا أنت لست فى حاجة لتعرف توجه الموقع تجاه مصر وقطر وداعش والجماعات المتطرفة، فهو يرى قناة السويس الجديدة «مشروع بلا جدوى للعالم»، ويحتفي بهجوم الدوحة على جامعة الدول العربية؛ لأن الأخيرة انتقدت ضربات عسكرية قامت بها تركيا فى العراق، ثم أن الموقع خلال تأبينه للملا عمر – مؤسس تنظيم طالبان الدموى المناهض للحضارة والحياة– اعتبر القاتل الراحل «قائد نادر الوجود». فهل هذا هو نهج «هافنتجون بوست» الأم؟ أم أن صفقات الفرنشايز أصبحت الآن هى «ادفع ما تستطيع وعك كما تريد باسم علامتى التجارية»؟

إلى مدى سيتمدد وحش الفرنشايز دون قواعد أو تقاليد أو حتى التزام بجودة ومعايير متفق عليها؟ هذا هو السؤال المرعب، وإذا لم يحاصر الفرنشايز و«يتلم شوية»، قد نجد ذات صباح فرنشايز لأسماء «عائلات» وأنساب، وربما بلدان بأكلمها، يشتريها من يملك الدولارات.

وحتى يحدث ذلك، فإن النصيحة لك ولأمثالنا ممن لا يملكون الفلوس، بينما الفرجة ثروتهم الوحيدة، هى أنه عندما تذهب للولايات المتحدة الأمريكية، رجاء لا تبحث عن ماكدونالدز.. كله «فرنشايز»!

Obeikandl.com

لب «النصر الإسلامي»

المسافة من القاهرة إلى مطروح ٤٥٠ كيلو مترا بالتمام والكمال، والرحلة تستغرق نحو ست ساعات بالسيارة شاملة استراحتين قصيرتين «بحسب طاقتك» في وادي النطرون والعلمين.

الرحلة طويلة لكنها ممتعة؛ إذ تعبر فيها على ساحل شمالي عريض ومتسع ومليء بالأساطير، بالنسبة لملايين يخطفون أسبوع المصيف في رأس البر وجمصة وبلطيم، ويسمعون فحسب عن مغامرات المشاهير والأثرياء والمجانين في قرى الساحل الغامضة، وذلك قبل أن تمر على مقابر الجنود الإيطاليين والألمان، الذين سقطوا قتلى في معركة العلمين الشهيرة ضد قوات الحلفاء بقيادة القائد البريطاني الأشهر «تشرشل» سنة ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية.

هنا تعاركت الدبابات والطائرات الأوربية على أرض، لا يعرف أهلها ما لهم بهذا الجنون الدموي الدائر حولهم، هنا تكسرت الأرواح وذابت قصص الحب الموصولة ببلدان خلف البحر في حرب لا يعرف كثير مما راحوا ضحيتها نتيجتها ولا ثمنها. تبدو المقابر الألمانية صارمة قاسية وعملية تمامًا كأنك تشاهد منتج صنع في فرانكفورت أو برلين، مجرد مقابر

في الصحراء، بينما المقابر الإيطالية يكاد أهلها أن يتشاركوا في حفلات رقص جماعية بسبب حالة البهجة والجمال، التي تشعها الزهور والأشجار التي تحيط بالمكان.

هل الأمر له علاقة بأن أرواح الإيطاليين متلامسة مع البحر المتوسط فاستشعرت أنها ليست ببعيدة عن الوطن هنا في العلمين،في حين أن الألمان حاربوا غرباء وماتوا غرباء؟ ربما.

على أن الرحلة لا تنتهي بالوصول إلى مرسى مطروح، وإنما تبدأ.

تعرف مطروح بأنها صاحبة الشواطئ المتعددة، بلدة ساحلية واحدة وألوان شتى من المياه الزرقاء والقرمزية الشفافة، بحر نظيف ونقي لم يصله إهمال أو زحام بعد، لكن الأشهر هنا «شاطئ الغرام»، حتى عام ١٩٥٠ كان هذا الشاطئ مهجورًا وعاديًا، قبل أن تدب فيه الحياة عبر صوت «ليلى مراد» وهي تغني «يا مسافر وناسي هواك» في الفيلم الشهير، الذي حمل الشاطئ اسمه من بعده «شاطئ الغرام»، هناك والمياه المتدفقة في نعومة بلا موج، والمرء يجاهد ليرتقي الصخرة التي غنت عليها نجمة سنوات الأبيض والأسود قبل ما يقرب من سبعين عامًا، ستتوقف لتتأمل الجمال الباقي الذي لا يزول ممتنًا لسينما زمان، التي حاول أصحابها الخروج من الاستدويوهات وشوارع القاهرة التقليدية، فهاجروا إلى هنا عبر رحلة شاقة، لعلها كانت تستغرق ضعف ما تستغرقه هذه الأيام، لكنه الخيال والرغبة في كسر الايقاع، هو الذي دفع مخرج خلاق مثل هنري بركات، لأن يستجيب لسيناريو محكم كتبه ثنائي مرعب هو «على الزرقاني ويوسف عيسى»، يتطلب أن يقطع كل هذه

المسافة ليقدم لمحبي السينما جانبًا من وطن لا يعرفونه، وسحر لم يمر عليهم من قبل.

لكن شاطئ الغرام ليس وحده الأعجوبة، هناك «عجيبة»، وهو شاطئ عجيب فعلا، يبعد عن قلب مطروح نحو ٢٤ كيلو مترا، لكنه يستقبلك بمشهد قادم من الجنة؛ بحر ممتد وصاف تتلاعب فيه كل درجات الأزرق، تحتضنه صخرة تبدو رغم طبيعتها الصلدة حانية كأم، يمكنك هنا أن تجلس لأيام وليال، دون لحظة ملل تتأمل حياتك وتتطهر من كل عذاباتك وآلامك وذنوبك، رحلة أخرى داخل نفسك لا أحد يشاركك فيها.

هناك أعلى هذه التبة، ثمة نقطة حدودية يرابض فيها جنود، هذا المشهد الساحر يتحول ليلا بكل تأكيد إلى جنة المهربين والهاربين، لو كنت سباحًا ماهرًا ستصل حدود إيطاليا في ساعات، بينما الحدود الليبية لا تبعد عنك أكثر من ساعة، دائمًا هناك جانب خفي لا تراه في اللوحة.

المشكلة الرئيسية أن كل هذه الشواطئ تخلو من أي استغلال واضح لجمالها، الذاهبون يفعلون ذلك هكذا، كيفما اتفق وبحسب توصيات الزائرين السابقين، فقط هناك موظف مسكين يحتمي من لسعة الشمس تحت «شمسية» أكلها الصدأ، ليقدم لك تذكرة الدخول مقابل جنيهين، المبلغ الزهيد يجعل الشواطئ ملكًا للجميع وهذا حسن، لكن من يحكي للوافدين قصة هذا الشاطئ وحكاية هذه الصخرة؟ أين المحل الذي يبيع صور ليلى مراد وهي تغني هنا أو صور مشاهير، الذين فتنوا بجمال عجيبة؟ هذا كنز، لكن أحدهم وضعه في صندوق مغلق ثم ألقى

بالمفتاح في البحر.

محل اللب والتسالي الأشهر في مطروح هو «نصر»، والوصول إليه مسألة شديدة الصعوبة، لأنه في شارع علم الروم المتفرع من شارع الإسكندرية الأشهر هناك، وفي هذه المنطقة سترصد على الأقل نحو ٢٠ محلا يحملون اسماء «النصر الحقيقي» أو النصر الأصلي في محاولة لمنافسة العلامة التجارية الأشهر، المنافسة قد يدخل فيها شيء من «الطائفية» كأن يسمى أحدهم محله باسم «النصر الإسلامي»؛ لأن «نصر» الأصلي يعلق صورة السيدة مريم في مدخل المكان، لكن لا بأس، هذه توترات تخلط التجارة بالدين لكنها – كما اكتشفنا – لا تعيش ولا تدوم.

مطروح التي صوت أهلها المتسامحون والمرحبون دومًا في طابع قبلي أصيل بالضيوف، لصالح مرشح الإخوان في انتخابات الرئاسة عام ٢٠١٢، ومنحت مقاعدها البرلمانية الفردية الستة لنواب عن حزب النور السلفي في انتخابات مجلس الشعب في العام نفسه، تبدو بلد متفتح ومنفتح، بلد صاخب لا ينام، يضج قلبها بالأغاني والرقص والضحك والمزاح حتى الصباح، في تأكيد جديد على أن السياسة لا علاقة لها كثيرًا بحب الحياة.

obeikandl.com

هيثم - سخم - حسنين - كا

مع نهاية شهر أغسطس ٢٠١٥، كان تمثال الكاتب الفرعونى "سخم- كا" يتم نقله من متحف "نورث هامتون" البريطانى إلى شخص مجهول، اشتراه بنحو ١٦ مليون جنيه إسترلينى، ليضعه فى منزله للفرجة الخاصة، دون طوابير أو تذاكر.

الأكيد أن هذا ليس أول تمثال مصرى يتم بيعه بطريقة "قرب قرب.. تمثال فرعونى يا مدام وارد القاهرة استعمال شعب لا يحب الآثار ولا يفهم فيها كثيرًا"، ولن يكون الأخير قطعًا، الخير كثير، والآثار على قفا من يشيل، والتمثال الذى تم تهريبه قبل ١٥٠ عامًا من القاهرة إلى لندن، حتمًا له أخوة فى فرنسا وإسبانيا وأمريكا ينتظرون "العدل" فى منزل ثرى آخر، من هواة جمع التماثيل المنهوبة من بلادها.

لكن المدهش، هو ذلك التزامن بين بيع تمثال الكاتب "سخم- كا"، وتلك الكلمة، التى ألقاها شاب مصرى يدعى "هيثم حسنين" من قلب جامعة تل أبيب، وكأن الحدثين موصولان بخيط رفيع خفى، ومرعب فى الوقت ذاته.

لا توجد معلومات كثيرة عن هيثم، مواقع إسرائيلية نشرت جزءًا من كلمته، باعتباره طالب دراسات عليا "ماجستير"،

obeikandi.com

وأنه قدم إلى إسرائيل من إحدى قرى الريف المصرى، لكن كيف فعلها؟ كيف انتقل من مصر إلى هناك؟ ما الجهات التى دعمته فى ذلك؟ هل عبر من كل التعقيدات الأمنية على المسافرين من مصر إلى إسرائيل، دون أن يستوقفه بنى آدم قائلا: "إنت رايح فين يا بنى"؟ هل هناك جهة وسيطة فى دول أخرى استضافته ثم نقلته إلى هناك؟ هل دخل على موقع الجامعة الإسرائيلية على الإنترنت وملأ "أبليكيشن" عادى، كأنه يشترى الساندويتشات من موقع التابعى، ثم اتصلوا به قائلين: "مبروك إنت معانا.. تعالى"، فراح؟

لا أحد يعرف إذن كيف خرج "هيثم حسنين" من القاهرة إلى تل أبيب، ونحن نعيش فى عام ٢٠١٥، رغم أن الجميع يعرف الآن كيف خرج تمثال "سخم – كا" من مصر عام ١٨٤٩، وهذا "سخام" حقيقى لا علاقة له بأى سخرية من اسم جدنا الفرعونى، الذى يعيش الآن وحيدًا فى منزل غامض، غالبًا لن نعرفه أبدًا.

الغريب أن هروب "سخم – كا"، دفع وزير الآثار لأن يطالب الشعب المصرى بالتبرع بـ١٦ مليون جنيه إسترلينى، لمنع بيع التمثال، وأنت قطعًا تعرف مصير أى مواطن صالح استجاب لهذه الدعوة، ونزل شوارع المحروسة، ليجمع التبرعات فى الميكروفونات قائلا: "تبرعوا لإنقاذ سخم.. تبرعوا لاستعادة كا"، ويمكنك وأنت جالس فى منزلك أن تسمع أصوات الاعتراض السكندرية الأصلية، التى شنّفت أذن هذا المسكين، وصبت اللعنات على سخم وأبو كا، بينما هروب "هيثم حسنين إلى تل أبيب، وإلقائه كلمة يتغزل فيها فى البلد، الذى ظنه

عدوا قاتلا، فإذا به بلد حر، يعيش فيه المسلمون مع اليهود مع المثليين "هو قال ذلك" بسلام، لم يثر ذلك لدى وزير التعليم، ولا وزير الثقافة، ولا حتى وزيرة العشوائيات، "غدة النخوة"، ليخرج أى مسؤول ليستغرب ثم يعتذر عما تفعله البلد فى لحمها، ثم يقرر أن يدرس حالة هيثم حسين، ليعرف الأسباب، التى تجعل شابًا مصريًا من ريف هذا البلد، يسافر إلى إسرائيل، ليتعلم هناك، ويتغزل فى مفاتن ذلك البلد المغتصب، قبل أن يتحرك هذا المسؤول أو ذاك، لإغلاق أو على الأقل لمواربة هذا الباب الملعون أمام الشباب، بدلا من كونه "مفتوح ع البحرى" هكذا، ليبدو وكأن السفر إلى إسرائيل قد صار أسهل كثيرًا من السفر إلى العريش، التى يدرس أبناؤها فى المدارس والجامعة الخاصة الوحيدة هناك على إيقاع الرصاص، وتواترات الاشتباكات المستمرة مع الإرهابيين.

هناك مصريون يسافرون إلى إسرائيل من أجل العمل، نعلم هذا جيدًا، ونعرف أيضًا أن هؤلاء ذهبوا إلى "سكة اللى يروح ما يرجعش"، لكن دلالة الهروب إلى إسرائيل بحثًا عن علم ووطن، أشد رعبًا بكثير من الهروب، بحثًا عن فلوس وسبوبة، وإن كان كلاهما "سخام" آخر بكل تأكيد.

الخيط بين سخم كا وهيثم حسنين موصول، كلاهما هرب فى لحظة غفل فيها الوطن، والمزعج أن هذه اللحظة تبدو كالدهر، وممتدة لأكثر من ١٥٠ عامًا، وحتى يومنا هذا، وإذا كانت استعادة تمثال "سخم كا" صارت مستحيلة، تمامًا كعودة هيثم حسنين كما كان إلى وطنه، وإذا كان تهريب التماثيل

مهنـة لـن تندثـر، خصوصًا مـع بلـدان مثلنـا لا يـزال فيهـا أهالينـا يحفـرون فـى منازلهـم، بحثًا عـن كنـوز فرعونيـة، فـالأولى بنـا أن نقـاوم تهريـب هيثـم وأخوتـه، فلعـل هـؤلاء يمنعـون تهريـب أى "سـخم كا" آخـر.

obeikandl.com

سكان الدور الثاني في الأزهر

فـى اليـوم الـذى حقـق فيـه ٦ طـلاب العلامـة الكاملـة فـى نتيجـة الثانويـة العامـة ١٠٠٪، كان هنـاك نحـو ٥٩ ألـف طالـب فـى نفـس السـن، رسـبوا فـى الثانويـة الأزهريـة رسـوبًا مبينًـا لا اسـتئناف فيـه إلا بامتحانـات الـدور الثانـى، وذلـك بنسـبة ٧٢٪ تقريبًـا ممـن تقدمـوا للامتحانـات، فيمـا وصفت بأنهـا أكـبر نسـبة رسـوب فـى عمـر الأزهـر، الـذى يزيـد علـى أكثـر مـن ١٠٠٠ عـام.

حـدث هـذا في صيـف ٢٠١٥، طبعًـا ليس هذا معنـاه أن الطلاب الستة هؤلاء يتفوقون على ذكاء بيل جيتس وألمعية مجدى يعقوب، وأن طـلاب الأزهـر الراسبين دخلـوا التعليم بالغلـط، لكن المقارنـة واجبة.

فـى السـنوات الـ١٠ الأخـيرة، كانـت نسـبة النجـاح فـى الثانويـة الأزهريـة أقـل عـادة من ٥٠٪، لكن النسـبة هـذه أخذت فى التـآكل إلى أن وصلـت فـى عامنـا هـذا إلى ٢٨٫١٪، وهـى نسـبة تهتـز لهـا مؤسسـات وجبـال، وتُخلـع بسـببها العمائـم والجبـة والقفطـان، لكـن لأننـا فـى بلـد مدهـش، يسـتطيع فيـه المـرء أن يقلـب الحقائـق بالريمـوت كنـترول، خـرج الشـيخ عبـاس شـومان، وكيـل شـيخ الأزهـر، لا ليعتـذر عـن نسـبة النجـاح المخزيـة، أو ليوضـح للـرأى العـام أسـباب فشـل منظومـة التعليـم فـى أكـبر مؤسسـة دينيـة فـى

مصر ـ فشل طبعًا ولا اسم آخر له ـ قرر أن يبادر بالهجوم المضاد بقاعدة «اتغدى بيهم قبل أن يتعشوا بيك ويهضموا بزبادى»، وعلى طريقة القادمين من الخلف، كما علمنا كابتن ميمى الشربينى، قال الشيخ شومان مبتهجًا ومنتشيًا ومتفاخرًا بأن نسبة الرسوب زادت لأنهم فى الأزهر، والحمد لله، قضوا على الغش!

كان د. شومان الأول على دفعته، عندما نال ليسانس الدراسات الإسلامية عام ١٩٨٥، ولا تذكر سيرته الذاتية المجموع الذى حققه فى الثانوية الأزهرية، لكن ما يقوله من قضاء على الغش يعنى أن هذا أمر كان قائمًا، وتم القضاء عليه للتو، ومر عليه وهو طالب فى الثانوية، وهو ما يعنى أنه يعيش بيننا على الأقل خريجو ٣٠ دفعة من الثانوية الأزهرية، بما فيها دفعة الشيخ شومان، وفيهم من دخل الجامعات الأزهرية، وتخصص فى العلوم الشرعية أو الدراسات الإسلامية أو الطب أو الصيدلة، وهو بعيد عن السامعين غشاش.. يا ثلاثين سنة سوداء!

الغش آفة عانى ولا يزال يعاني منها التعليم فى مصر، وصناعة أسطورة الثانوية العامة على مدار نصف قرن، كانت أكبر المحفزات على ذلك، وذاكرة المرء تحتوى قصص عدة من مدرسين كانوا يقومون بأعمال المراقبة فى امتحانات الثانوية فى سنوات الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضى، وكانوا يتعرضون فيها للتثبيت بالسنج والمطاوى، والتهديدات بماء النار، والسيخ الحامى الذى يكاد يحرق «صرصور الودن»، ما لم يسمحوا للطلاب فى عدة لجان بالغش، والمدرس حينها يا ولداه، ضيف غريب على القرية أو المحافظة بأكملها، فى

تكتيك حكومى أصيل ظاهره يستهدف عدم حدوث أى صفقات بين المدرسين من أهل القرية والطلاب، وباطنه، تسليم المدرسين الوافدين للأشرار من الأهالى، ورفع نسبة النجاح بالغش الذى يتم تحت تهديد السلاح.

حسن فعل الأزهر إذن بأن حارب الغش، لكن متى يحارب انحدار مستوى التعليم، وهو أصل الداء؟

من المرعب أن يتصور الواحد أنه بين كل ١٠ من شيوخ الأزهر، يوجد واحد منهم غشاش، وعبر إلى الجامعة ومنها إلى مسجد ليخطب فى الناس ويفتيهم دون أن يستحق، ومرعب أيضًا أن يكون كل ٧ من أصل ١٠ فى هذه الدفعة الأزهرية المشؤومة «٢٠١٥»، هو خريج «الدور الثانى»، أو العام التالى، لأنه فشل فى الغش، ترى كم إرهابى أو محرض على القتل وسفك الدماء كان فاشلا فى الأزهر لدرجة حتى أنه لم يكن يستطيع أن يغش؟

الحديث عن أى إصلاح فى الخطاب الدينى، دون غربلة منظومة التعليم الأزهرى قبل الجامعى ثم الجامعى هو محض «هجص»، والأزمة إذن ليست فى تنقية المناهج مما هو شاذ، ويغذى جينات التطرف فحسب، وإنما أيضًا فى مستوى تأهيل طالب الأزهر، وقدرته على تحصيل العلم بالحلال والجهد، وليس عبر الفهلوة والنصب والغش وإلا فلا.

وحتى يحدث ذلك، سيظل الشيخ شومان سعيدًا بأن هناك ٧٢٪ من طلاب الأزهر راسبون، دون أن يدرك أن الذى رسب هنا ليس ٥٩ ألف طالب، وإنما مؤسسة دينية كبرى، ومن خلفها المجتمع كله.

لماذا لا يشاهد المصريون التترات؟

هـذا مشـهد متكـرر، لا يختلـف إذا وقـع فـى سـينما شـعبية مـن تلـك التـى تعـرض ثلاثـة أفـلام فـى بروجـرام واحـد، أو تلـك الفخمة الفاخـرة التـى يمكنـك أن تـأكل فيهـا ذلـك الاخـتراع العجيـب "فيشـار بالكراميـل"، وأنـت تتابـع الفيلـم فـى صالـة يـكاد تكييفهـا أن يجمـد الـدم فـى عروقـك.

يقبـل البطـل بطلتـه أو يقتلهـا ويشـرب مـن دمهـا مخلوطًـا بعصـير الرمـان، يطلـق ضحكـة سـاخرة بلهـاء بـلا معنـى، أو يحتضـن شـقيقه فـى حنـان وهـو يغـرس المطـواة فـى ظهـره، تصـرخ الزوجـة لأن حبيبهـا سـقط مـن الـدور ٣٦، أو خبطه أتوبيس سـياحى فاخـر، فـى كل الأحـوال، رد الفعـل واحـد، فجـأة، وقـد استشـعر أن "الفيلـم خلـص"، ينتفـض الجمهـور مـن علـى مقعـده الخشـبى الـذى يصيبـك بالبواسـير، أو مـن علـى كرسـيه الوثـير الـذى يجعلـك تشـعر بأنـك بجلسـة "جاكـوزى"، ليغـادر الجميـع قاعـة السـينما فـى هرولـة الهاربـين مـن زلـزال مدمـر أو بـركان وشـيك، ويتركـون خلفهـم تـتر نهايـة الفيلـم، وحيـدًا بائسًـا منبـوذًا.

المثـير أنـه فـى أحيـان كثـيرة، يتضـح أن الفيلـم لم ينتـهِ بعـد، أو علـى أحسـن تقديـر، فـإن التـتر يقـدم تتمـة للنهايـة، أو تفسـيرًا

مغايرًا لها أو لأحداث متشابكة، لكن الجمهور يكون فى هذه اللحظة بالذات قد أعطى قفاه للشاشة، يبحث عن طريق للخروج، غير عابئ بأن هناك فيلمًا آخر يجرى من خلفه، غير مدرك أنه سيعود للمنزل وهو لم يشاهد الفيلم كاملاً، وأنه استغفل نفسه بنهاية، غير تلك التى شاهدها بقية الخلق.

لاحظ أن تترات الأفلام والمسلسلات تقدم لك خريطة اجتماعية نادرة، وقصص صعود وهبوط تستحق الرصد والتحليل، فها أنت تعرف مثلاً أن عم أحمد لبة واحد من أشهر أسطوات الكهرباء فى الصنعة، وأن هناك عمال بوفيه يعملون فى هذه المهنة من ٢٠ سنة، وأن عائلة عشوب مثلاً ضاربة فى صناعة الماكياج والخدع منذ السبعينيات، ثم أن مراقبة رحلة الممثل الطويلة منذ ظهور اسمه فى نهاية التتر ضمن قائمة أسماء المجاميع وصولاً إلى تلك العبارة الفخيمة "ظهور خاص لـ...."، أو "بطولة النجم فلان الفلانى"، ومقارنة السنوات بالسنوات، تكشف لك أن التمثيل مهنة عرق وجهد، وأن الممثل من هؤلاء "يطفح الكوتة"، حتى يتطور من كومبارس صامت إلى نجم شباك، قبل أن تنطفئ عنه الأضواء لاحقًا بفعل الزمن وأدمغة أصحاب المال، ومزاج الجمهور العصى على التوقع.

هل تعكس ثقافة "فكك من التترات" ما يشير إلى أن غالبية الجمهور/الشعب، لا يهتم بال"فنيشينج" والصنايعية الذين تقوم على أكتافهم صناعات عدة، وليست السينما إلا واحدة منها؟ ربما، خصوصًا أنه إذا مددت الخط إلى نهايته فستكتشف أن المصريين من مدمنى "هجرة التترات" فى حياتهم وليس فى

السينما فحسب، فتجدهم يلملمون أشياءهم ويعودون إلى منازلهم، وهم فى المتر قبل الأخير من المشروع أو الحدث أو الثورة، بينما "الفينالة" لم تأت بعد.

فعلناها وبجدارة مذهلة فى ثورة ٢٥ يناير، عقب تنحى الرئيس السابق حسنى مبارك عن الحكم فى ١١ فبراير ٢٠١١، عاد كثيرون منا إلى روتينهم اليومى، على اعتبار أن "الثورة خلصت" والفيلم انتهى، بينما التترات كان يكتبها الإخوان، ومن سلم نفسه لرؤيتهم السينمائية من أهل الحكم حينها، وفوجئنا بعدها بأن الفيلم ذا النهاية الرومانسية الجميلة، انقلب إلى فيلم رعب، نعيش آثاره حتى يومنا هذا.

وما حدث فى يناير ٢٠١١، حدث من قبل فى ثورتى ١٩١٩ ويوليو ١٩٥٢، وحتى عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣، كل هذه الأحداث الكبرى غادر معظمنا مقاعده فى صالة العرض، دون أن يشاهد التتر، فكان الفيلم دومًا مبتورًا، و"ناقص حتة".

راجع نفسك فى علاقاتك الإنسانية والاجتماعية، وحتى فى طرق تفكيرك فى الحياة، ستكتشف أن معظمها دون تتر نهاية، فقط أحداث متلاحقة متشابكة، صراعات وخناقات وأحضان وقبلات، بلا نهاية متماسكة، أو على الأقل بنهاية مزيفة، تظنها الحقيقية وهى ليست كذلك.

رجاء.. شاهدوا الفيلم حتى نهايته، دققوا فى التتر، ولا تغادروا مقاعدكم قبل أن تظلم الشاشة تمامًا.

obeikandi.com

حق الـ «بي بي» الآمن

عندما وقفت السيدة العجوز المصابة بالسكر حائرة ومرتبكة ومزنوقة، فى قلب حى مصر الجديدة، لا تعرف أين يمكن أن تلبى نداء الطبيعة فى هذا الشارع، الذى يضج بالمارة والصخب ومحلات تبيع البرجر والشاورما، وأخرى يتصاعد منها دخان الشيشة، ولكنه يخلو من حمام عمومى يوحد ربنا، لم تكن تعرف أنها بمعاناتها هذه تشترك مع ٢,٥ مليار بنى آدم فى العالم، لا يعرفون أين يمكن أن "يفكوا زنقتهم".

ربما تكون سيدتنا هذه صاحبة حظ أوفر، كونها لو صبرت على نفسها قليلا، حتى تستقل الميكروباص أو المترو، قبل أن تهرول إلى منزلها، كأنها تهرب من قاتل أجير، ستجد فى نهاية الرحلة المؤلمة، مرحاضًا فى منزلها، بينما أشقاؤها فى الكرة الأرضية من الـ٢,٥ مليار، لا يجدون حمامًا فى منزلهم أو فى الشارع، والبديل المرعب هو أن يعملوا "بى بى"، هكذا فى العراء، ولا يضرب هذا خصوصيتهم أو حقوقهم الطبيعية فى مقتل فحسب، بل إنه يجعلهم عرضة – بخاصة السيدات – للاعتداء الجنسى، وهو أمر تقريبًا لا يحدث بين الحيوانات الدنيا، لكن شر البشر يفوق الخيال فى أحيان كثيرة.

obeikandi.com

قد يبدو الأمر بالنسبة لك رفاهية باعتبارك رجلا بشنبات، تربى منذ صغره على عبارات خالدة من نوعية، "اعمل بى بى على عمو ياحبيبى"، فى دلالة على الشجاعة والرجولة، وهو أمر يكبر مع الذكر من هؤلاء، فتجده لا يحمل هم "الحسرة" أو الزنقة فى أى وقت، إذ إنه تلقائيا يتنحى جانبًا فى أى ركن مظلم، أو تحت كوبرى متداع، ليشعر بالراحة الاستثنائية، دون معاناة وبسهولة شديدة كتلك التى يفوز بها الأهلى على الزمالك دومًا، دون أن يفهم أو يستوعب معاناة النساء فى مصر، ليس فى مواجهة مواصلات تهرس الأنوثة، أو تحرش فظ قادم من العصور الوسطى، وإنما فى أبسط حقوقها.. تعمل بى بى بأمان عندما تكون فى الشارع.

هناك حلول اخترعتها ستات مصر قطعًا، كثيرات يحرصن على اللقاء فى محيط سلسلة المحلات الأمريكية الشهيرة، التى تقدم البرجر أو البيتزا، تحسبًا لأى طوارئ، حينها ستدخل الفتاة منهن المحل بثقة شديدة، ثم تقترب من الكاشير فى هدوء، وتتأمل قائمة الطعام فى تأنى، ثم ترفع الموبايل -الذى لم يرن - لتتصنع أن أحمد أو جيهان يتصلا بها، فتومئ برأسها إلى البائع فى إشارة بأنها "ثوان بس"، ثم تتجه إلى دورة المياه الموجودة فى المطعم، وهى تكلم شخصًا افتراضيًا فى الهاتف، قبل أن تلبى حقها فى التخلص من الأثقال، ثم تخرج وهى تدعو فى سرها أن يكون البائع قد "اتلخم" فى زبائن أخرى، لتعانق زميلاتها، اللائى ينتظرنهن أمام المطعم، فى فرحة الفتاة الباكستانية ملالا وهى تتسلم جائزة نوبل للسلام!

ثمة حمامات عامة فى بعض شوارع القاهرة، وهو أمر نادر فى باقى المحافظات، وربما يكون من حسن حظ أهلها، إذ إن هذه الحمامات الموجودة فى العاصمة، تهرب من رائحتها وحالتها المزرية، الضباع والنسور، وهى حيوانات وطيور اعتادت على أكل لحوم الموتى كما تعلم!. وتبدو هذه الحمامات، وكأنها ميراث ملعون تتوارثه كل الحكومات والأنظمة فى دأب وإصرار، وكأنها أثر نادر لو تعرض للهدم أو التجديد، لخرجت مصر من قائمة الدول التى تضم عجائب الدنيا، ولاتهمتنا اليونسكو بإهدار تراث إنسانى، غير قابل للتكرار.

من العجيب فعلا أن بلدًا مثل مصر، يعيش فيه عدة ملايين فى تجمعات سكنية فاخرة، مليئة بحمامات السباحة، يخلو تقريبًا من حمامات عامة تراعى أن حق "البى بى" الآمن، يعلو فوق حق السباحة الآمنة.

فلماذا مثلا، لا تفرض الدولة على الشركات الاستثمارية الكبرى، ضرورة إنشاء عدة حمامات آدمية فى الشارع، مقابل تخصيص أرض لبناء مول أو تجمع سكنى فاخر أو نادى رياضى يلعب فيه البعض الجولف بحماس؟ بينما لو رآه آخرون، لهرولوا تجاه "الحفر" باعتبارها "عين" فى حمام بلدى تقليدى!

بحسب تقرير للأمم المتحدة التى أعلنت فى ٢٠١٣ أن ١٩ نوفمبر سيكون يومًا عالميًا لدورات المياه، فإن كل دولار يتم إنفاقه فى بناء حمام، يعود لمن أنفقه ـ دولة كانت أو مستثمرين– خمسة أضعاف، متمثلة فى بشر أصحاء ومنتجين و"غير مزنوقين"، وهو أمر يعنى أن الدولة يمكن أن تفرض ذلك

على رجال الأعمال باعتباره "بيزنس" يا أخى، وليس حتى باعتباره عمل إنسانى يفك "زنقة"، لكن من يشعر بالمزنوقين والمزنوقات فى بلد "مزنوق" فى عنق الزجاجة منذ نصف قرن وأكثر؟!

obeikandl.com

فلنحارب الإرهاب بالإيدز

بعد أن تهرب من الإجابة أكثر من مرة بكل ما أوتى من خبرة في اللت والعجن، وجد ما يعرف بالخبير الإستراتيجي نفسه مضطرًا لأن يجيب عن السؤال الذي زنقته فيه أكثر من مرة المذيعة الحسناء ذات الشعر الأشقر، كان السؤال «كيف يمكن للدولة أن تحارب الإرهاب في سيناء بجانب استخدام السلاح؟»، صمت خبيرنا لثوان كأنه يبحث عن إلهام من الكواكب الأخرى، ثم جاءه المدد مهرولا من «بلوتو»، فقال بثقة عباس أبو الحسن، وهو يحل لغز جرائم القتل في مسلسل «استيفا»: بالمشروعات الصغيرة، ثم صمت مرة أخرى ليعطي لكلمته الأثر المرجو، ولما لم يأته الرد المنتظر، واستشعر خطر أن تكون المذيعة الحسناء قد أصيبت بصدمة عصبية، قرر أن يجهز عليها وعلى المشاهدين في سرعة قائلا: شوفي حضرتك، المواطن السيناوي لو اشتغل وبقى عنده مشروع صغير، أكيد مش هيكون فيه إرهاب، وكان هذا هو الوقت المثالي قطعًا لإغلاق التلفزيون.

أنت تعلم بكل تأكيد أن المشروعات الصغيرة في مصر هي أقصر طريق لأن يصبح المرء إرهابيًا. يأخذ الشاب من هؤلاء القرض بحماس شديد من أحد جهات أو بنوك الدولة؛ لإنشاء كشك أو مصنع محندق أو حتى ليشتري به تروسيكل ليبيع عليه

ملابس لحمادة وميادة، ثم يفاجأ بأنه ملتزم بدفع فوائد مركبة بشكل شهري، وأنه بلا خبرة في الإدارة أو التسويق، وأنه بمفرده في هذا الجحيم كالشيطان عندما رفض السجود لسيدنا آدم، وحده في «الطل» بلا خبرة أو دعم، وهكذا يجد نفسه غالبًا على باب السجن بعد عدة أشهر، وقد يظهر «موديل» في إعلانات رمضان ليطالب أهل الخير بالتبرع له باعتباره من الغارمين، فهل هذه هي الهدية التي نحب أن نقدمها لأهل سيناء أو غيرهم؟

الإيد البطالة تسهل من الإغراء بالدخول في الحرام بكل تأكيد، لكن من قال إن الإرهاب جمعية سرية مغلقة على العاطلين والفقراء؟ خالد الإسلامبولي قاتل الرئيس السادات، كان ضابطًا بالجيش يحظى باستقرار مالي ومهني جيد، معظم قيادات الإخوان الذين صدرت بحقهم أحكام قضائية تتعلق بقضايا تخابر أو تحريض على القتل، هم في الأصل أساتذة في الجامعات وأطباء ومهندسون، وجميعهم من الأثرياء أو ميسوري الحال، المجنون الذي ذبح رئيسه في مصنع الغاز الفرنسي ثم وضع رأسه على الأسوار، كان على الأقل ينال الحد الأدنى للأجور المقررة في بلاده، ويقدر بـ١٤٥٠ يورو شهريًا، أي أكثر من ١٢ ألف جنيه مصري بقليل.

إذن المشكلة ليست في الجيب وإنما في الرأس.

والأهم لمواجهة الإرهاب، ليس الحديث المطلق عن تنمية سيناء، أو إنشاء مصانع، أو التشجيع على الانخراط في دوامة المشاريع الصغيرة، وإنما إذن في بناء العقل، وهذا يأتي بالأساس من هذا الكيان العظيم الذي اتفق عليه البشر لتأسيس العقول.. المدرسة.

معظمنا يبقى أسيرًا للأفكار التي يتعلمها في المدرسة، ويتطلب الأمر جهادًا وحربًا حقيقية مع النفس والأسرة والعادات والتقاليد، لتغيير فكرة واحدة عما اعتاد عليها في سنوات عمره المبكرة. أنت تعرف أن القبطي من أهل الكتاب أو تتعامل معه باعتباره كافرًا في سنوات البناء هذه، تفرق بين الجهاد والقتل هنا، تستوعب معنى تقبل الآخر والتعايش مع الاختلاف، أو لا تفهم سوى الرأي والصوت الواحد في هذا الفصل، ولعل هذا ما أدركته كل الجماعات الإسلامية المتطرفة مبكرًا، فأنشأت لأعضائها مدارس مغلقة على أبنائها ليخرجوا متشبعين بأفكارها فحسب، ومحصنين تمامًا ضد أي أفكار مغايرة، صحيح أن احتمالات الانحراف سلبًا أو إيجابًا تبقى قائمة لاحقًا بفعل عوامل تتعلق بطبيعة الشخص، وما يحيط به، لكنك لا تملك سوى أن تتعامل مع هذه الحقيقة، التعليم والمعرفة وحدهما يقهران التطرف، وما بعد ذلك هو الاستثناء.

ولعلها ليست صدفة أن يتوصل علماء في جامعة بوسطن في هذه الأيام تحديدًا إلى أنه - تخيل - زيادة مدة الدراسة في المرحلة الثانوية لعشرة أشهر، قد تقلل من فرص الإصابة بمرض الإيدز بنسبة ٨٪. لا تفسير دقيق، لكنهم لاحظوا ذلك في بتسوانا تلك الدولة الإفريقية البائسة، التي يصاب فيها ٢٢٪ من السكان بذلك المرض القاتل، فلما عدلت من نظامها الدراسي، وأضافت أشهر عشرة إلى المرحلة الثانوية تراجعت نسبة الإصابة بالإيدز، وهو أمر أرجعه الباحثون، إلى أن الشهور العشرة هذه عززت من «الفرص الاقتصادية لأصحابها، وقللت من تورط النساء في علاقات جنسية مدفوعة الأجر، وغيرت من

الظـروف الاجتماعيـة للطـلاب إجمـالا».

حسـنًا هـذا هـو دوري لأن أتقمـص دور الخبـير الاسـتراتيجي الهمـام؛ لأجيـب علـى السـؤال العويـص للمذيعـة الشـقراء الحسـناء: يـا سـيدتي، فلنحـارب الإرهـاب كمـا تحـارب بتسـوانا الإيـدز، كلاهمـا مـرض قاتـل، علاجـه في المـدارس لا في المشـروعات الصغيرة!

obeikandl.com

دليلك لمعرفة الشخص «الفتاي»

هـي صفـة مصريـة حصريـة، مجانيـة، تنـزل مع الطلبـات دون أن يكـون هنـاك «أوردر» بذلـك، يشـترك فيهـا العـوام مـع المتعلمـين بتـوع المـدارس، يربـي الآبـاء أبناءهـم عليهـا منـذ الصغـر، وتجدهـا في الشـوارع والبيـوت، وعلـى صفحـات الجرائـد، ومواقـع التواصـل الاجتماعـي، والتلفزيـون قطعًـا، لا تمـوت بانقطـاع الشـخص عـن وطنـه، وإنمـا تتجمـد في ركـن قصـي بروحـه، ولا تخـرج أبـدًا للأجانـب، حتـى إذ عـاد الواحـد مـن هـؤلاء إلى مصـر، هبـط مـن الطائـرة، ليقبـل أرض المطـار، ثـم ضغـط زر «إعـادة التشـغيل»، ليعود «فتايـا» كمـا يقـول الكتـاب؛ «الفـتي» كصفـة لأهـل الاختصـاص، لكنهـا صـارت بقـدرة شـعب جبـار، صفـة سـائدة لـكل مـن هـب ودب وشـب، لـو قـدر لأبـو الوراثـة العـالم النمسـاوي الكُـبرة «منـدل» أن يخضعهـا لدراسـته، لأرتـج عليـه، وتـرك الصنعـة، وتفـرغ لطبـخ «البسـلة» بـدلا مـن تفصيصهـا وراثيـا، حسـنا، إليـك الدليـل لعلـك تنجـو بنفسـك:

١. لديـه يقـين حاسـم: مهمـا ناقشـته فيمـا يقـول مـن «فـتي» هـو ثابـت ككمـين المـرج لا يتحـرك ولا يتزحـزح أبـدًا، لا يملـك دليلا واحـدًا علـى رأيـه، لكنـه لا يقبـل النقـاش، ولا يهتـم بأن يسـألك عـن مصـادرك فيمـا تقـول، نهايـة الحـوار على لسـانه تكـون عادة

obeikandi.com

بجملة تعكس يأسه وقنوطه منك، ومن دماغك التي لا تريد أن تفهم، مثل: «والله شكلك بتفتي ومش عارف حاجة».

٢. خاض تجارب بعدد شعر.. رأسك: لكنك أبدًا لن تعرف تفاصيل هذه التجارب، ولا المكان أو الزمان الذي وقعت فيه، هو يقول بيقين دومًا «صدقني.. الكلام ده عن تجربة»، وعندما تسأل عن تفاصيل، يسألك هو عن أحوالك أو عن رأيك في ألبوم محمد حماقي الجديد.

٣. يمتلك أسلوب رهيب في الترهيب: يخضك، ثم يوترك، ثم يحذرك، ثم يتركك في الجحيم بجملة واحدة «خلاص انت حر.. اشرب بقى».

٤. يحتفظ بقصص مرعبة: إذا قررت شراء سيارة مستعملة يهجم عليك «هتلبس وكل يوم عند ميكانيكي زي صاحبنا وائل»، إذا طاوعته وقررت شراء سيارة حديثة بالتقسيط، يقهقه «مسكين.. عند أول شهر تأخير هتشرف في السجن زي صاحبنا عباس»، ثم إذا استسلمت وقررت الاكتفاء بالميكروباص، يتمتم في حزن «الله يرحمك.. كل يوم حادثة على الدائرى.. ده أنا نص أصحابي راحوا مهروسين».

٥. يموت في الأكشن : كل ما ستسمعه منه يرتبط عادة بمصائب أو جرائم أو سرقات أو فشل أو انتحار أو سجن، وأحيانًا إذا تلبسته الحال قد يصل الأمر إلى الإعدام، يحتفظ دومًا في ذاكرته بعدد من جرائم القتل والتمثيل بالجثث واختطاف الأطفال واغتصاب القاصرات، هو غالبًا قد سمعها من «فتاي» آخر، لكنه يضيف عليها الكثير من البهارات وآرائه

الشخصية بفعل إدمانه لأفلام الجرائم الأمريكية، وبرامج أحمد موسى ومصطفى بكري ووائل الإبراشي وريهام سعيد.

٦. قادر على التواجد في مكانين في وقت واحد: تعرف هذه الظاهرة في أدب الخيال العلمي بـ«الانتقال الآني»، تكون في القاهرة ثم هوب تجد نفسك إذ فجأة في أسوان، هو قطعًا لايعرف العلم ولا الأدب، لكنك إذ حدثته عن تفاصيل عملية إرهابية في شبرا، يقسم لك أنه نجا منها بأعجوبة بعد أن انفجرت السيارة المفخخة عقب مروره من جوارها بـ٢٣ ثانية بالضبط، ثم يروى لك كيف «طلع...... السيدة والدته»، وهو قادم صباح اليوم من فيصل لأن الشوارع كانت «زحمة موت»، ثم عندما تسأله عن «ازدواجية المكان في وقت واحد»، يجيبك في استغراب «انت بتفتي ياعم.. ما شبرا جنب فيصل».

٧. يشترك في جروب «عبارات خالدة»: دائم التشيير لكلمات يظنها عميقة منسوبة لشخصيات تاريخية، لابد وأن لا تكون على قيد الحياة، كثير من هذه العبارات يكون على شاكلة «الكلاب وحدها تنبح، لأنها لا تستطيع الكلام» لـ«جوته»، أو «الدنيا مليئة بمن يشربون اللبن ثم لا ينامون مبكرًا» لـ«نيتشه»، أو «حاولت قتل العالم كله، لكن الرصاص لم يكف» لـ«هتلر». ثم يتبع ذلك بعبارة تلخص رأيه «حكمة خالدة أعمل بها». وأي محاولة للنقاش معه في أن ذلك تزوير بيّن للتاريخ، و«فتي رخيص»، ستكون نتيجتها «بلوك» لك ولمن يتشدد لك.. وأنت الكسبان طبعًا لأنه كما قال ابن رشد «فيس بوك جنة الأوغاد، وجحيم لأهل العقل».

خطبة جمعة بطعم «المانجو»

كان خطيب الجمعة يتحدث برتابة وفتور عن معالم الجنة التي تنتظر المسلم الصالحِ، عندما أراد فجأة أن يكسر ملل الحديث بتشبيه يظنه بليغًا، فقال في صوت حاول أن يكون حماسيًا محفزًا، لكنه بارد فقير» في الجنة أنهار من الخمر والعسل المصفى.. الخمر ده حلال وطعمه لا يوصف.. بالظبط كده لما تشرب كوباية مانجة وتتمزز فيها!».

الغريب أنه لا أحد من المصلين استوقفه التشبيه الكارثي، الذي ترتج له سماوات اللغة العربية وعلوم الدين، لا أحد ابتسم، ولا أحد استوعب أن الخطيب يحاول أن يكون «فهلويًا» ولا أحد وقف في قلب المسجد من انفعاله وصرخ في وجه الخطيب قائلا «هو إيه اللي بتقوله ده؟»، الكل – الخطيب والمصلين – متوافق ومتواطئ على أن هذه ٢٥ دقيقة من الوقت الضائع، علينا أن نتحملها قبل أن نؤدي فريضة الصلاة بعدها، ثم يلملم كل منا حذاءه ويرحل إلى حال سبيله، لا يتذكر شيئًا من الخطبة ولا يعرف ما إذا كانت تختلف عن خطبة الجمعة الماضية أو القادمة في شيء.

لا توجد قياسات رأي دقيقة لدينا، لكن الأكيد أن المشهد السابق يحدث وسيحدث في أكثر من ٨٠٪ من مساجد مصر،

obeikandi.com

وكأن قدرنا وقدر مساجد هذا البلد المبتلى بأعدائه ومحبيه، أن تكون محاصرة بين خطباء محرضين أو خطباء جهلاء، وكأن الخطيب المفوه الملم بتعاليم دينه «شخص مسحور»، لا أحد يراه لكننا نبحث عنه ونسمع حكايته الأسطورية.. فما الذي حدث؟

في التسعينيات من القرن الماضي، بدت المساجد هي المتنفس الوحيد للعمل الدعوى والسياسي للإخوان والسلفيين، هكذا ظهر نجوم الكاسيت من الدعاة السلفيين، الذين يتحركون على هامش الإخوان أمثال محمد حسان ومحمد حسين يعقوب ومحمد عبد الملك الزغبي، وغيرهم ممن اتسعت شعبيتهم باتساع تحركاتهم الجغرافية في عمق الدلتا وعلى شط القناة وفي الأحياء الشعبية للقاهرة والإسكندرية، صنع هؤلاء جماهيرية ملموسة، إذ قدموا خطابًا دينيًا مغايرًا، حتى لو تضمن في معانيه تطرفًا أو شذوذًا، لكنهم نجحوا في استخدام كل مهارات الخطابة والتأثير والاستحواذ، وفعلوها. لكن عقب ثورة ٢٥ يناير عندما لعبوا هؤلاء الدعاة في السياسة وقعوا في الغلط، تاهوا في ملعب لا يعرفون قواعده أو جدوده أو حتى طبيعة جمهوره، وعندما وصل الإخوان إلى الحكم، تحولت المساجد إلى ساحة اقتتال بالمعنى الحرفي «هل تذكر حرب مسجد القائد إبراهيم في الإسكندرية كل يوم جمعة؟ هل تذكر معركة مسجد الفتح عقب عزل مرسي؟». كان المسجد هو الحصن الأخير، الذي ظن الإخوان أنه يمكن أن يحميهم من الغضب الهادر في الشارع، لكن هذه المحاولة البائسة لم تنجح.. الوقت فات والمعادلة تغيرت، غاب الإخوان عن المشهد إذن، لكن لم يغب الخلل الذي طال بيوت الله.

مثلما كانت محاولات الإخوان هيستيرية للاستحواذ على بيوت ربنا، كانت ردة فعل الدولة في محاولة إعادة السيطرة على المساجد هيستيرية بدورها. خرج من دروس المساجد إرهابيون ومتطرفون في السابق هذه حقيقة علمية وعملية، لكن من قال إن احتلال الدولة للمنابر وتوزيع «خطب سابقة التجهيز»، يقتل التطرف من المنبع؟

تذهب أنت للمسجد الآن، فتسمع «خطيب المانجو»، فهل يمكن أن يدفعك هذا لأن تذهب ليوتيوب لتشاهد «الخليفة أبو بكر البغدادي» أمير داعش وهو يحرض أنصاره على القتل بدم بارد؟ كل شيء وارد.. ثم أن لكل فعل رد فعل، قد يتجاوزه في القدر والقوة مع الاعتذار للعزيز نيوتن وقانونه الثالث، الذي يسري قطعًا في العلوم، لكنه ليس كذلك بين البشر.

هل يجب أن تتحدث المساجد في السياسة؟ وما المانع.. أليست السياسة شأنًا أصيلا من شئون الخلق؟ هل يجب أن تكون المساجد منفصلة عن الزمن والواقع حتى يرضى عنها الكبار؟ المهم دائما هو الكيفية التي يتم بها ذلك، كانت السياسة مهجورة بأمر أمن الدولة إلا في استثناءات قليلة في زمن مبارك، ولم يمنع ذلك خروج متشددين من المساجد، وكانت السياسة مفتوحة على البحري في منابر زمن الإخوان، فخرج من المساجد من فجر وقتل وخرب، نحن هنا نبحث عن هذا الخيط الرفيع الذي لا يجعل المساجد وسيلة سياسية ولا يجعلها في ذات الوقت مقطوعة الجذور مع الناس ووجعهم، من جديد نبحث هنا عن المنبر المسحور الذي لم يره أحد، المنبر الذي

يقف عليه خطيب يدرك أن الكلمة التي يقولها تبني وتهدم، ولو بشكل غير مباشر وآني.

الثمن الذي دفعته مصر من استخدام المساجد في السياسة مؤلم وموجع بلا شك، لكن الثمن الذي قد ندفعه جميعًا بتبوير المنابر وتحويل من يقف عليها إلى «روبوت» يتلو ما هو مسجل على «سي.دي»، لن يكون أقل وجعًا وألمًا.

obeikandl.com

تلك الرائحة.. عطر «أبو كاتيا»

الفرنسيون مغرمون بالحب، حقهم، البلاد الحلوة تفتح النفس على النظر في العيون في هيام، وإضافة البهارات على الـ «French kiss»- تخيل القبلة الفرنسية في قلب باريس.. ثلاثية الأبعاد!-، وتبادل عبارات الغرام من نوعية «أحبك بعدد زوار برج إيفل، الذي يرتدون تي شيرت مكتوب عليه (قبلني سريعا)»، و«أعشقك بعدد السمك البلطي المبطرخ في نهر السين»، لكن الخيال الفرنساوي لا ينتهي، إلى حد أنه وصل أخيرًا إلى صناعة عطر من «ملابس الأحباب» الذين رحلوا.

رومانسية مفرطة بعيد عنك.

الغريب أن الذي حرك هذه الفكرة هي مشاعر بين ابنة ووالدها، مات الأب، وعاشت الابنة «كاتيا»- ينفع اسم عطر بالمناسبة - أيامًا صعبة، لا تقو على نسيان أبيها أو رائحته التي كانت تحبها كثيرًا، بكل تأكيد، الفقيد لم يكن يضع قطرات من عطر «لولوا» الذي خلده في أغنية تاريخية الشعبي العابر للحدود محمود الليثي، وقد ضرب به المثل في عالم البرفانات الشعبي؛ لأن الكيس منه بربع جنيه.

obeikandl.com

ارتج الأمر على الابنة المكلومة، وقد آلمها أن والدتها تحمل نفس المشاعر تجاه والدها – هي تلك المشاعر التي تحملها كل زوجة مصرية مخلصة لزوجها الراحل في ألف.. سلامة – للدرجة التي دفعت الزوجة الفرنسية للامتناع عن تنظيف حجرة الزوج الراحل، حتى تحتفظ برائحته عالقة في أرجاء المكان، «شغل أشباح زي ما انت شايف».

ثم ماذا؟

هل قرأت رواية أو شاهدت فيلم العطر للألماني باتريك زوسكيند؟.. فاتك الكثير، إن جنون البطل المغرم برائحة الفتيات العذارى، والذي يدفعه لقتلهن من أجل استخلاص رائحة الخلود هذه، يتحقق هنا وبحذافيره، المفارقة أن أحداث هذه الرواية المذهلة المكتوبة عام ١٩٨٥جرت تفاصيلها في فرنسا القرن الثامن عشر.. الأدب ده عليه حاجات يا جدع.

لأننا في فرنسا، التقط الخيط – أو الوجع الإنساني الرقيق – جامعة لوهافر في الشمال الفرنسي. وعكف بعض من أساتذتها على استخلاص «رائحة البشر» من أجل إرضاء كاتيا والست أم كاتيا واستعادة رائحة العم أبو كاتيا، ونجحوا في ذلك فعلا عبر «استخلاص جزئيات الرائحة من ملابس الراحل»، في تطبيق عملي للدور الذي يجب أن تقوم به الجامعة كمكان يستخدم العلم وسيلة لتحقيق أحلام وشطحات البشر. تعرف أنت قطعًا أن هذا يحدث في جامعات مصر بحذافيره مع بعض «التاتشات» البلدي الحصرية، التي تتجلى في «ملخصات المنهج» و«نصوص المحاضرات»، التي تشتريها من مكتبة «فانتوماس» لتحفظ ما

فيها ثم تكتبه على ورق الإجابة في سرعة، كمن يعاني من مغص كلوي، لتخرج بعدها سعيدًا بتقدير مقبول على «الحركروك»، راضيًا مرضيًا قانعًا بدورك في تطوير البحث العلمي العالمي.

لكن «عطر أبو كاتيا» لن ينافس «لولوا» للأسف. صحيح أننا نعرف أن الأول مستخلص من رائحة البشر، ولا نعرف من أي مصرف صحي تم استخلاص لولوا، لكن أن يصل سعر زجاجة عطر أبو كاتيا إلى ٥٦٠ دولار، فهذا أمر يفوق نفقات دفن العم «أبو سوسن» بمدافن الصدقة في مصر، حتى لو تطوع أحدهم بأن أخرج «٧ كيلو قرص» رحمة ونور، وأن قام بتشغيل «ربع قرآن» بصوت الشيخ عبد الباسط على موبايله الجديد الذي اشتراه للتو من شارع عبد العزيز بـ١٥٠ جنيه، بعد أن هدد صاحب المحل بالمطواة، قائلا له في ثقة مدعمة بأصوات سكندرية أصيلة «وديني لأبلغ الحكومة عليك، وأقولهم إنك بتبيع خطوط مجهونة»، هو يقصد مجهولة بكل تأكيد لكنه فارق الصوتيات كما ترى.

لكن الخيال يسافر، والبلد الذي يطلق قمر صناعي ذات يوم، ثم «يفلفط» منه في الفضاء ليلعب معه الاستغماية في درب التبانة، قادر على تصنيع عطر بشري أقوى من عطر «كاتيا» ومن أبو أبو كاتيا نفسها، لكن الأمر يحتاج أولا إلى تفسير علاقة المصريين أولا بالملابس التي ستستخلص منها رائحة العطر، لاحظ أن المصريين كعادتهم اشتقوا كلمة خليطة؛ لتكون بديلا لفصحى الملابس، كلمة هدوم غير موجودة في المعجم، حتى لو قرأته من الشمال لليمين أو من تحت لفوق، في الأغلب هي كلمة تم اشتقاقها من كلمة هندام، والأخيرة في المعجم تعني

«حُسْن القدِّ واعتداله وتنظيم الملابس»، لكننا ولأننا شعب عملي بطبعه، يدرك جيدًا أن لا مواصلات رحيمة في هذا البلد بالناس أو بهندامه، تدحرج الحال بالهندام إلى الهدوم، وهي كلمة من نطقها تحس فيها بالبهدلة والمرمطة، وهو مصير أي قطعة ملابس مصرية مسكينة تخرج من فاترينة المحل، وهي هندام لتصبح «هدمة» على جسد المواطن من دول.

تخيل إذن عطر أبو وفاء برائحة «زنقة مترو المرج»، أو عطر «أبو نورا» برائحة خط النهضة – جامع عمرو الساعة ٢ ظهر يوم ١٥ يوليو، أو عطر «أبو عبير» برائحة كل محلات الكشري التي اعتاد الشراء منها يوميًا، أو عطر «أبو أحمد» برائحة وتأثير «الدائري»، بعد كمين مسطرد الساعة ٣ العصر، أو عطر «أبو السباع» برائحة خط قطار المناشي قبل ما يعمل حادثة، أو عطر «أبو روقة» برائحة آخر ٤ ساعات قضاها في ليلة صيفية حارقة بقسم شرطة المطرية.

بكل تأكيد لن يزيد سعر زجاجة العطر هذه عن سعر خمسة أكياس من لولوا، وربما تقل عن ذلك إذا اشتريتها بالجملة، ومن يدري ربما «تلعب البلية» ويلتقط مصدر ابن بلد ذلك العطر المصري الإيحاء، ويقوم بتوريده إلى فرنسا متنوعة الرائحة، لينافس بقوة عطر«أبو كاتيا»، وحينها سيقف الأسطى «زينهم» أمام «فرشته» في قلب الشانزلزيه لينادي على بضاعته بعلو الصوت: «شم يامدام، شم يا مسيو.. أجدع من عطر كاتيا واللي خلفوها»، ومن خلفه يقف صبيه يشرح السر للفرنسيين المبهورين، وعيونهم تسيل منها الدموع تأثرًا: «ياجدعان العطر مش «أسنس».. العطر نفس».

obeikandl.com

لماذا لا يستيقظ الضمير مثل «سراج منير»؟

في الدقيقة ١١٣ من فيلم دهب شديد المتعة والإبهار «إنتاج ١٩٥٣ بالمناسبة» يهرول الأب الجاحد الشرير «سراج منير»، إلى وحيد «النجم الذي لا ينطفئ بريقه أبدًا أنور وجدي»، يتوسل إليه أن ينقذ ابنته الشقية الأسطورة «دهب» من الانتحار، رغم أن الأب نفسه هو من تركها في الشارع «حتة لحمة حمرا» قبل سنوات هربًا من الفضيحة والعار- كل أفلام زمان تزاملت فيها الفضيحة مع العار، رغم أن كثيرين الآن يعيشون بيننا، وفضائحهم بجلاجل لكن لا عار لا وخشى ياجدع -.

تصل الدراما ذروتها إلى حد أن الأب الجاحد سيبكي قائلا لأنور وجدي: «انقذها واعتبرها بنتك، وانت أبوها». سينتفض وحيد، وسيتطاير شعره الأسود الناعم العجيب على وجهه، قبل أن يسأل في غضب مفهوم: «دلوقت بس جاي تقولي إنت ابوها، كنت فين من زمان؟»، ينظر سراج منير في انكسار كبير إلى الأرض، قبل أن يقول بلهجة باشوات الخمسينيات الفخيمة «ضميري استيقظ» - طبعًا قال استيقظ هذه بالفصحى المقعرة -.

obeikandi.com

في ثـلاث دقائـق تاليـة فقـط، سـينقذ وحيـد دهـب، وسـيتزوج أيضًـا مـن السـيدة ماجـدة، في حفل زفـاف يغني فيه إسماعيل ياسـين «اتمخطـري.. طـري.. طـري ياعروسـة، واتشـخلع.. لعلـع لعلـع يـا عريـس»، وسـيقف إلى جوارهـم الأب سـراج منـير، مرتـاح الضمـير، رغـم أن الأخـير اسـتيقظ للتـو قبـل ثـلاث دقائق مـن عمر الفيلـم، ولو كان اسـتيقظ قبل ذلـك، لانحرمنـا مـن اسـتعراضات غنائيـة مبهـرة خالـدة، ومـن واحـد مـن أمتـع أفـلام السـينما المصريـة عـبر تاريخها.

هـذه إذن ميـزة واحـدة علـى الأقـل لاسـتيقاظ الضمـير متأخـرًا، وبخاصـة ضمـير ممثـل عظيـم مثـل سـراج منـير. أنـه كان سـببًا في أن نشـاهد فيلـم دهـب، لكـن السـؤال هنـا، لمـاذا لايسـتيقظ ضمـير الآخريـن مثـل ضمـير سـراج منـير، حتـى ولـو حـدث ذلـك في آخـر ثـلاث دقائـق مـن عمـر فيلـم أو حيـاة؟

يعـني مثـلا، لماذا لم يسـتيقظ ضمـير الحاكم الفاسـد بحكم القضاء «حسـني مبارك نموذجًا»، قبل آخر ثلاث دقائق من فوران ٢٥ يناير؟

لمـاذا لم يجـذب أحمـد عـز مـن قفـاه، ويشـد حبيـب العادلـي مـن قميصـه، ويصفـع نجلـه جمـال قلـم محـترم علـى وجهـه «معلـش أبـوه ويسـتحمله»، قبـل أن يقـول لهـم في صـوت خمسـيناتي: «أنـا ضمـيري اسـتيقظ. مافيـش توريـث.. مافيـش داخليـة ترعـب خلـق الله.. مافيـش انتخابـات مـزورة.. عـودوا إلى مقاعدكـم في مزبلـة التاريـخ، وأنـا جـاي وراكـم علطـول»؟

ألم يكـن ذلـك كان سـيرحمنا من «تسـلخات المرحلـة الانتقالية»، الـتي نعيش آثارهـا حتى الآن؟

لماذا لم يستيقظ ضمير مرشد موتور لجماعة ارتمت في أحضان التشدد واحتقار الآخرين «محمد بديع نموذجًا»، قبل آخر ثلاث دقائق من غليان ٣٠ يونيو، فاتصل بمحمد مرسي قائلا: «اركن على جنب» فركن، ثم نظر لخيرت الشاطر في عصبية قبل أن يقول: «إيه الهباب اللي إحنا عملناه ده.. هنتفرم.. روح بلدكم»، فروح، قبل أن يخرج على التلفزيون مساء ضيفًا خاصًا على برنامج باسم يوسف «آه كان بيتذاع ساعتها» ليقول للشعب: «إحنا آسفين.. عليّ الطلاق مالينا في السياسة ولا في الدين.. لقد استيقظ ضميرنا».

ألم يكن ذلك سيمنع أنهار الدم التي سالت وتسيل؟

لماذا لا يستيقظ ضمير الوزير الفاسد ورجل الأعمال الحرامي، والمذيع التافه والكاتب النصاب، والمدير الفاشل والزوجة/ الزوج النكدية/ الشرير، والصديق الخائن، ولو حتى في الدقيقة ١٢٥٤٦٥٦٨ من الحياة؟

أو سؤال ميتافيزيقي.

لماذا يستيقظ ضمير سراج منير في كل مرة يعرضون فيها فيلم «دهب»، ولا يحدث ذلك تقريبًا مع أي شخص يشاهد الفيلم نفسه؟ هل الأزمة في أن لا أحد يضمن أنه بعدها سيتزوج ماجدة، وسيغني له إسماعيل ياسين؟ طب «»اتمخطري.. طري.. طري يا عروسة، واتشخلع.. لعلع لعلع ياعريس»

ضميرك «استيقظ» بقى؟

عنصرية «بلاك تيما»

تقول كلمات الأغنية التي يدندنها في سعادة بالغة آلاف: "اللي عامل نفسه ناصح/ جاي يديني في نصايح/ نص عمره يدوب فضايح/ انت فاكرني هندي».

على موقعهم الرسمي، يقول أعضاء فريق «بلاك تيما»، الذي تأسس عام ٢٠٠٤ أنهم يهدفون إلى تقديم أغنية بديلة، وأن اختيارهم لاسم الفريق لم يأت فقط بسبب أن بشرة نجومه الثلاثة سوداء، ولكن؛ لأنهم يحاولون تقديم موسيقى تجمع بين البلوز والجاز والهيب هوب، والتي عادة ما تألقت على يد موسيقيين من أصول إفريقية وأصحاب بشرة سوداء، شيء ظريف جدًا.. إذن «بلاك تيما» تتحدى العنصرية ضد البشرة السوداء، وتمجد أصحابها بالغناء، لكنها تسخر من أمة بحالها يتجاوز عدد أفرادها المليار، و"تقفي" عليهم باعتبارهم "إفيه" يتغنى عليه.

هل هذه أوفرة وتصيد للأخطاء؟

وارد، وهو يعني انت ضامن نفسية وجوانيات كاتب هذا المقال، مش جايز كان نفسه يغني مع بلاك تيما، وراح لهم، فقالوا له: «انت اللي هتغني يا منعم قدام مراية الحمام»؟ مش يمكن يكون عميلا لباكستان– الجار اللدود للهند – ويريد أن

يفسد العلاقات المصرية الهندية، خاصة وأن الهند لها استثمارات في مصر وصلت إلى ٢,٥ مليار دولار "واخد بالك أنت يا أخ ياللي بتغني هناك.. ممكن تعرفني بقى استثمارات مصر في الهند كام؟".

كل شيء وارد، لكن تعال نتكلم برواقة.

هاجت الدنيا على وزير عدل سابق؛ لأنه تحدث بعنصرية عن استحالة وصول ابن جامع القمامة لمنصب القاضي، الرجل لم يشعر أنه يتحدث بمنطق عنصري، هو يقول ما يراه يحدث وسيحدث، والناس تتعايش معه في مصر باعتباره من المسلمات، الخطأ هنا إذن ليس في كونه ابتدع حقيقة، لكنه فقط أشار إليها، عنصرية هذه؟ طبعًا. لكن الكل يفعلها باتفاق غير مكتوب، تتوارثها أجيال، وتؤكدها أجيال أخرى، دون أي محاولة لتحليلها أو السعي للوقوف ضد تكرارها.. تمامًا مثل مقولة: "انت فاكرني هندي"، هذا قول مصري عنصري أصيل، ضربه واحد بلدياتنا، عرق الشوفينية كان شادد عليه حينها، وعمل لها دماغ لا يصنعها عشرة أقرص من الترامادول المضروب، ثم توارثته أجيال في حماسة وفخر ومرح، حتى تأصل وسكن في الوجدان العام للمصريين، دون أن يسعى أحد لتفكيكه أو تحليله أو السؤال حتى «وهما مالهم الهنود ياعم؟»

فقرا؟ ضحكتني ألا تمشي في شوارع المحروسة وترى أهلها؟. منهم من يعبد البقر؟ عيب عليك أليس في مصر من يعبد البشر؟ لهم وجوه خشنة وبشرة تميل إلى الأسود؟ هو الأستاذ مش واخد باله بإعلانات «كريم تفتيح البشرة» التي تملأ البلد؟

obeikandl.com

مالهـم الهنـود ياعـم.. أقولـك، يتـم وصفهـم بأكـبر ديمقراطيـة في العـالم، ليـه؟ لأنـه منـذ الاسـتقلال في ١٩٤٧ وحتـى تاريخـه، وهناك انتخابـات حـرة ومحترمـة ومنتظمـة وتـداول سـلطة حقيقـي، بـلا أي تهديـد مـن نوعيـة «هنولعهـا لـو محـدش انتخبنـا»، ثـم أن هـذا أكبر شعب في الكـرة الأرضيـة يذهـب بانتظام وكثافـة للتصويت والمشاركة «آخـر انتخابـات في ٢٠١٤ شـارك فيهـا ٦٦٪ مـن الناخبـين المقدر عددهـم بــ٨٠٠ مليـون، ونحـن هنـا أقمنـا أفـراح وليـال مـلاح وكدنـا أن نـوزع الشربات والتفـاح، عندمـا ذهـب ٣٨٪ مـن الناخبـين المقدر عددهـم بــ٥٥ مليـون للتصويـت في آخـر استفتاء علـى الدسـتور».

الهنـد تنتـج سـنويًا ١٢٠٠ فيلـم سـينمائي، تبيـع تذاكـر تقـدر بــ٣ مليـار دولار، ونحـن في مصر كاد المنتجـون والموزعـون أن يصابوا بذبحـة صدريـة مـن فـرط السعادة، بعدمـا حقق فيلـم الفيـل الأزرق إيـرادات قـدرت بــ٣٣ مليـون جنيـه العـام الماضـي، متفوقًـا علـى نحـو ٣٠ فيلمًـا آخـر «يتامـى» نافسـوه طـوال السـنة!

دعـك مـن أن الهنـد الآن واحـدة مـن أكـبر القـوى المصنعـة في العـالم لبرمجيـات الكمبيوتـر، ويمكنـك أن تتأكـد بذلـك بنفسـك عـبر صفحـة الزميـل الموسـوعي «جوجـل»، لكـن قبـل أن تذهـب إلى هنـاك أحـب أن تعـرف بـأن المديـر التنفيـذي لشركة مايكروسـوفت حاليـا هـو الباشمهنـدس «سـاتيا ناديـلا».. وهـو كمـا تلاحـظ مـن الاسـم «هنـدي»، وليـس صاحـب محـل لبيـع وإصـلاح «شاشـات اللابـات» في مـول «البسـتان».

غلطـوا بـلاك تيمـا يعـني؟ آه غلطـوا غلطـة كبـيرة طبعًـا؛ لأن الفـن يعيـش ويسـكن في الوجـدان ويؤصـل لدينـا الأفـكار حتـى ولـو

كانت مغلوطة، ولأنه إذا كانت غلطة السياسي نتيجتها إقالة أو استقالة، فإن غلطة الفنان بألف مما يحسبون.

الفن أذواق قطعًا، لكن الترويج للعنصرية ولو على سبيل الهزار ممنوع، ولو رضيتم بـ«إنت فاكرني هندي»، فرجاء لا يفط أحدكم من مجلسه هاتفًا بصوت مبحوح «عنصريون أوغاد»، عندما يركب ذات مساء توك توك في شوارع «نيودلهي» ويجد السائق الذي يشبه «أميتاب باتشان»، يستمع إلى أغنية صاخبة لفريق «بلاك تيما الهندي» تقول كلماتها: «اللي عامل نفسه دوغري/ جاي يقولي كلام في ودني/ نص عمره بيقول ويهري/ إنت فاكرني مصري»!

الجمهور الحقيقي لـ«سعيد حساسين»

في الطريــق مــن «الدائـري» إلى مدينـتي كرداسـة وشـقيقتها الملاصقـة أبـو رواش، تصافحـك دومًـا مشـاتل الـورود والزهـور العطريـة على جانـبي الطريـق، يبـدو أن (النائـب) سعيد حساسين قـد اشـتم رائحـة الـورود هـذه مبكـرًا، وأدرك مـن «بـدري بـدري» أن طريقـه للثـراء والشـهرة سـيكون مفروشًـا بالـورود والأعشـاب، إذا كانـت الأعشـاب نفسـه هـي وسـيلته.. وقـد كان.

من بين كل المرشحين في الجولة الأولى من انتخابات مجلس النواب ٢٠١٥، كان سعيد حساسين ظاهـرة تسـتحق التوقـف عندها وبعمق.

ليـس لأنـه رجـل اتهـم مـرارًا وتكـرارًا في قضايـا تتعلـق بالترويـج لمنتجـات طبيـة مزيفـة أو أخـرى تصنـف في بنـد الجنـح، وإنمـا لأنـه نمـوذج للشخص الـذي صنـع أسـطورته بنفسـه – حتـى ولـو كانـت أسطورة كاذبـة – في زمـن الثـورات والتحـولات، وإعـادة ترتيـب هرم المشـاهير، لاحـظ أن هـذا الرجـل الـذي لم يصـل بعـد إلى الخامسـة والأربعـين مـن عمـره، هـو الآن نائـب يتمتـع بحصانـة وأهبـة وسـلطة ونفـوذ، وتحـت يـده ١٧ صيدليـة تحمـل لقـب العائلـة، منتشـرة في ١٢ محافظـة في مصـر، أمـا الصيدليـة الـ١٨ فتجدهـا في كورنيش القواسمى بجوار بنك ابو ظبى بإمـارة رأس الخيمـة.. نعـم

في الإمـارات، أنـت لم تخطـئ القـراءة، وإلى جـوار هـذا النفـوذ «السياسـي» المتمثـل في عضويـة مجلـس النـواب، والنفـوذ «المالـي» الواضـح في سلسـلة صيدليـات تبيـع وهـم الأعشـاب، الـتي تعـالج كل الأمـراض مـن أول سـرعة القـذف وحتـى سـرطان البنكريـاس، فهـو لديـه أيضًـا «النفـوذ الإعلامـي»، متجليًـا في فضائيـة العاصمـة الـتي أطلقهـا في أبريـل ٢٠١٥، أي قبـل انتخابـات مجلـس النـواب بسـتة أشـهر فقـط، معلنًـا أنـه يمتلـك ٩٨٪ مـن أسـهمها، بينمـا يمتلـك الـ٢٪ المتبقيـة «اثنـين مـن أخواتـي» علـى حـد تعبـيره شـخصيًا، كل هـذا فعلـه رغـم أنـه لا يمتلـك مهـارات لا تختلـف كثـيرًا عـن تلـك الـتي يمتلكهـا أي عطـار مخضـرم في حـي الحسـين، لكنـه يمتلـك مـا هـو أهـم مـن ذلـك «الدمـاغ الـتي تبيـع الوهـم».

متى ظهر سعيد حساسين تحديدًا؟

لا أحـد يعـرف علـى وجـه الدقـة، في الأغلـب بـدأ الطفـح الإعلامـي لـه، عقـب ثـورة ينايـر ٢٠١١ بقليـل، في هـذا الزمـن كان يمكـن لأي شـخص يمتلـك ميكروفـون وغرفـة في سـطوح؛ أي اسـتديو، في مدينـة الإنتـاج الإعلامـي أن يطلـق قنـاة فضائيـة، فعلهـا الرجـل وأطلـق في ٢٠١٢ قنـاة خليجيـة، وهـي قنـاة بـدأت بتقديـم محتـوى شـبابي، ثـم تحولـت لتقديـم برامـج دينيـة معانقـة للتطـرف، قبـل أن يصبـح سـعيد حساسـين هـو نجمهـا الأوحـد، ويسـتحوذ علـى برنامجهـا الرئيسـي، ثـم علـى ملكيـة القنـاة نفسـها لاحقًـا، ليقـدم خلاصـة خبراتـه في الترويـج للأعشـاب ووصفـات الزيـوت والكريـم، الـتي تطيـب الجـراح وتشـفى مـن السـرطانات، مـع ملاحظـة أنـه تمسـك باسـم القنـاة «خليجيـة»، الـذي لاعلاقـة

لـه بالجمهـور المصـري، وكأن الرجـل الـذي أصبـح مترسـخًا في سـوق «بيزنـس العطـارة والأعشـاب» يعرفـه جمهـوره جيـدًا.

هـو نفسـه اعـترف، ذات يـوم، في جلسـة خاصـة جمعتـه مـع فريـق إعـداد برنامـج تليفزيونـي، أنـه لا يهتـم بالسـوق المصـري كثـيرًا، وأن مـا يبيعـه في صيدلياتـه المنتشـرة في مصـر في سـنة، يكسـب مثلـه في ثلاثـة أيـام فقـط، يقضيهـا زائـرًا لقصـور أمـراء الخليـج، وبالتحديـد في السـعودية والإمـارات، وفي يـوم «الفضفضـة» غـير المذاعـة علـى الهـواء هـذا، سـخر حساسـين مـن زبائنـه في الخليـج، ولم يـراع «العيش والملح والريـالات»، قائـلا بـأن أغلـب الاستشـارات الـتي تأتيـه مـن زبائنـه أصحـاب الملايـين تسـتهدف عـلاج الضعـف الجنسـي للرجـال، وتفتيـح البشـرة للنسـاء.

قبـل إعـلان ترشـحه في انتخابـات مجلـس النـواب عـن دائـرة كرداسـة، كان حساسـين يتحـرك في أغلـب اللقـاءات، الـتي تجمعـه بمشـاهير أو تـؤدي بهـا إلى صفقـات في البيزنـس، بصحبـة ضابـط شـرطة صديـق لـه، كانـت الرسـالة واضحـة «الحكومـة معايـا»، أو علـى الأقـل الـذراع القـوي فيهـا، ولمـا بـدأ في دوامـات الجـولات الانتخابيـة، وصـار عليـه لزامًـا أن يـزور قـرى ونجـوع، ويخطـب في مؤتمـرات، صـار البـودي جـارد بديـلا لضابـط الشـرطة الصديـق، الـذي بـات مـن الصعـب عليـه أن يمـارس دورًا يفـوق قدراتـه، ومـع هـذا التبـدل لم ينزعـج كثـيرًا أهالـي «أبـو رواش» مـن ابـن بلدهـم الدكتـور سـعيد كمـا يطلقـون عليـه، عندمـا رأوه بينهـم في حمايـة «بـودي جـارد»، فالدكتـور «طيـب وابـن حـلال وبيصـرف علـى الغلابـة»، كمـا يـروى لـك الكثـير مـن أهالـي البلـدة، الـتي تقـف

obeikandl.com

على الحدود بين القرية والمدينة الريفية، ثم أنه «بيتحارب من أعداء كثيرين»، ومن حقه أن يحمي نفسه من «أولاد الحرام».

في أبو رواش، خلال اليومين اللذين جرت فيهما انتخابات الإعادة، لم يكن هناك صوت يعلو على صوت سعيد حساسين، رغم أنه كان ينافس أحد أقربائه من ذات البلدة، بل إن منافسه هذا نائب برلماني سابق، وصاحب خبرة في غابات الانتخابات، لكن «الدكتور» فور أن يظهر في قلب قصره الموجود على أطرف المدينة، وبرفقته كاميرات قناة العاصمة وحسناواتها من المذيعات الشقروات، يبدأ السيرك في العمل؛ هتافات تؤيده بالروح والدم، ودعوات ترتفع في السماء تتطلع إلى وصوله إلى البرلمان، وأنه يكرمه ربنا بحق ما قدمه من خدمات طبية ومالية للفقراء والمساكين، وهكذا كان من الطبيعي جدًا أن يكون الجمهور الرئيسي لحساسين، هم من العجائز والسيدات اللائي زحفن إلى اللجنة الرئيسية في «أبو رواش» في أول أيام انتخابات الإعادة، وهن يأملن في ثلاثة أشياء لا أكثر، أن ينجحن في التصويت للدكتور، وأن يكون نصيبهن صدفة في أن يلتقين الدكتور ليلتقطن معه «صورة سيلفي»، وقد يفزن بالثالثة عبر منحة من الدكتور، متمثلة في علبة كريم تداوي الأوجاع وتشفي الأمراض.

حسنًا، جمهور سعيد حساسين الحقيقي كما رأيته في أبورواش، هو الفقر والجهل، لا ثالث لهما.

خلال السؤال عن بيت أو فيلا أو قصر سعيد حساسين، شرح لي أحد أهالي البلدة طريقة الوصول، قبل أن يطلب مني باعتباري صديق للدكتور، كما بدا له، أن أطلب منه أن «يهز

obeikandl.com

الفلـوس شـوية» قائـلا بأنـه مسـتعد أن يعطـي صوتـه لأي شـخص يمنحـه ١٠٠ جنيـه، بينمـا المعـروض عليـه في هـذا اليـم هـو خمسـون جنيهـا فقـط، لا يعـبر موقـف هـذا (الناخـب) عـن كل أهالـي البلـدة قطعًـا، ثـم أنـه لا يصلـح للتعميـم للقـول بـأن كل مـن منحـوا أصواتهـم للدكتـور فعلـوا ذلـك، في مقابـل أمـوال، لكـن الأكيـد أن كل مـن منحـوا أصواتهـم لحساسـين فعلـوا ذلـك، وقـد جربـوا عينـات مجانيـة مـن منتجاتـه، أو جربـوا وصفـة عشـبية تلاهـا عليهـم في برنامـج تلفزيـوني لعـلاج الإمسـاك، أو لتكبـير حجـم الثديـين أو زيـادة الفحولـة.

سـعيد حساسـين إذن يعيـش في ثنايـا تفاصيـل الحيـاة اليوميـة الموجعـة غالبًـا لجمهـوره، يبيـع الإحسـاس بالشـفاء، والشـعور بتحسـن الصحـة، وتلبـس الفحولـة الجنسـية، وهـي كلهـا مفـردات غائبـة عـن القطـاع الكبـير مـن المصريـين، فلمـا يجـدوا مـن يعطيهـم الأمـل في أن يعيشـوا حيـاة أفضـل، حتـى ولـو كان ذلـك بالوهـم أو مـن خـلال وصفـات العطاريـن، فلماذا لا يمنحونـه أصواتهـم وثقتهـم وإيمانهـم بـه؟

لاحـظ أيضًـا أن حساسـين يغلـف بضاعتـه بمسـحة دينيـة ريفيـة، هـو بالأسـاس ليـس خطيبًـا جيـدًا، ولا تسـتطيع أن تتابـع برنامجًـا تلفزيونيًـا لـه أكثـر مـن ثلاثـين ثانيـة، لكنـه يخلـط الأعشـاب بالديـن، وكريمـات تفتيـح البشـرة ببركـة ميـاه زمـزم، دعـك مـن صورتـه الشـهيرة مـع زعيـم السـلفيين المهووسـين «حـازم أبوإسماعيـل»، فالأخـير عقـب ثـورة ينايـر كان أكثـر النـاس قربًـا لكرسـي الرئاسـة، وكان مـن الطبيعـي لـكل المتطلعـين للوصـول إلى ذروة الهـرم التقـرب منـه، خاصـة وأن كليهمـا سـعيد حساسـين وحـازم أبـو إسماعيـل، يبيعـان بضاعـة واحـدة، عطـارة الـكلام

والأعشاب، لكن أكبر دليل على خلطة حساسين الدينية الشعبية، هي معركته التي افتعلها مع الطبيب النابه د.خالد منتصر، الذي خاض نصف عمره تقريبًا يحارب الخرافات والجهل، خاصةً تلك التي تتخذ من الطب طريقًا، الدكتور النائب أمسك في عبارة قالها منتتصر، نفى فيها أن يكون في ماء زمزم ما يشفي كل الأمراض، وكانت هذه نقطة هجوم مثالية ترضي ضمير الجمهور الشعبوي، المحب للأعشاب والحجامة، خرج حساسين على فضائيته؛ ليعلن أنه سيتقدم ببلاغ للنائب العام ضد منتصر قائلا بالنص: "سأقاضى هذا الشخص وهكلم محامين مخلصين للدين، يرفعوا عليه قضية ازدراء أديان، ومش هسيبه غير لما أحبسه بالقضاء..الدين الإسلامى خط أحمر، دكتور خالد اتكلم فى الهرش والحساسية والجرب، وبعد عن ثوابت الدين، من يومنا بنتمنى نشرب من مياه زمزم ونروح الكعبة، ولا حد قال جالنا الكلى، أو هنموت، تيجى أنت تقولنا سامة وهتضر الكلى."

هكذا فجأة أصبحت مياه زمزم من «ثوابت الدين»، وأصبح خالد منتصر، رئيس قسم الأمراض الجلدية بجامعة قناة السويس، خبيرًا في الهرش والجرب، صحيح أن حساسين انشغل بالانتخابات، ولم يقدم بلاغًا أو لعله لم يجد محامين مخلصين للدين، لكنه نال «السوكسيه الجماهيري» الذي يبحث عنه أي ممثل على خشبة مسرح، ثم يذهب إلى بيته راضيًا مرضيًا.

ما طموح حساسين القادم إذن؟

هـذا النائـب سـيكون نجـم برلمانـي، وليـس مـن المسـتبعد أن يفتـح ملفـات «الفسـاد الطـبي» و «النصـب الدوائـي»، وشـركات بيـع الوهـم الطـبي للمصريـين البسـطاء تحـت قبـة البرلمـان، هـذا دوره المثالـي الـذي لـن يثنيـه عنـه كونـه متهمًـا بالنصـب والغـش التجاري أو بيـع منتجـات غـير مسجلة بـوزارة الصحـة، جمهـوره الحقيقـي لـن يصـدق أبـدًا أن الدكتـور، الـذي حصل علـى بكالوريـوس الصيدلة مـن جامعـة خاصـة في سـنوات التسـعينيات، ثـم انطلـق في سـوق الأعشـاب، يمكـن أن يكـون نصابًـا أو مخادعًـا أو يبيـع لهـم الوهـم.

المشـكلة إذن ليسـت في صعـود سـعيد حساسـين ووصولـه إلى البرلمـان، ومـا بعـده مـن طموحـات تبـدو بـلا سـقف، المشـكلة الحقيقيـة إذن في جمهـوره الحقيقـي، الـذي صـوّت لـه في الصناديق، وفي الجهـة الـتي تحافـظ علـى تركيبـة وطبيعـة هـذا الجمهـور، وكأن هـذه هـي الصفقـة المثاليـة مـع أي «حساسـين»، ومـا أكثرهـم في بلدنـا.

Obeikandl.com

حوار مع جهة سيادية

– مساء الخير

– أهلا

– حضرتك بترد باختصار ليه؟

– شغل

– يعني حضرتك مشغول فمش بترد ولا دي هي نفسها طبيعة ا لشغل ؟

– الاتنين

– هو حضرتك قديم هنا؟

– من قبل ما تتولد

– طب ليه الناس بتجيب سيرة حضرتك في كل حاجة بتحصل في البلد رغم أنك كبير.. والكبير له هيبة؟

– هواجس

– حضرتك كشفت عليهم عند د. أحمد عكاشة؟

– أنا عارف الحقيقة كويس

obeikandl.com

- ناس كتير مفكرة أنها عارفة الحقيقة بس وقت الجد بتركب الهوا

- أنا مبركبش

- طب ليه حضرتك ما بتردش على الناس اللي بتقول عليك كلام مش حقيقي؟

- مين قال إنه مش حقيقي؟

- حضرتك

- مقلتش

- لأ. قلت إن اللي بيقولوه هواجس.

- وهي الهواجس كلها غلط

- يعني الكلام غلط ولا صح؟

- مش مهم

- حضرتك بتحب الغموض شكلك؟

- هتهزر؟

- لا يافندم العفو أنا بس بسأل

- ....

- إحم.. طب أنا عاوز أعرف أرد على الناس إزاي اللي بتقول عليك كلام كده وكده.

- ماتردش

obeikandl.com

– أمال مين اللي يرد؟

– محدش

– ونسيبها كده؟

– وهي مالها كده؟

– متلخبطة شوية واللخبطة مرمطة زي ما حضرتك بتقرأ على عربيات الميكروباص من ورا

– اللخبطة ظروف المرحلة

– والمرحلة دي هتطول؟

– اسألها.

– ماشي حاضر. بس الناس بتحب تفهم

– كل حاجة واضحة بس إنت ركز.

– أنا معاك والله، ثم يعني لما يفهموا هيعملوا إيه؟، بس أهو على الأقل اللي بيفهم بيتكلم صح.

– ....

– إحم.. بيقولوا حضرتك بتتأثر بالسوشيال ميديا.. الكلام يعني اللي بيسخن فجأة على فيس بوك وتويتر.

– ما بسخنش.

– بس بتتأثر شوية.. صح؟

– ....

- حاسس أن وقتي خلص.
- اختصر
- هـو حضرتـك بترفـع السـماعة وبتكلـم حـد وتقـول لـه قـول كـذا ومتقولـش كـده
- انت عبيط؟
- بالإيميل طيب؟
- ....
- يعني ممكن تمنع برنامج ولا توقف طبعة جورنال؟
- مش كل حاجة تتقال تتصدق
- أمال أصدق إيه؟
- استفت قلبك.
- الغموض وحش حضرتك
- لو اتعودت عليه مش هيبقى غامض.
- طب سؤال أخير.. حضرتك شايف إحنا رايحين على فين؟
- بلاش السؤال ده
- حضرتك بتقلق من إيه؟
- اللي زيي مابيقلقكش
- بس أنا قلقان

obeikandl.com

- خليك زيي
- الناس مقامات حضرتك
- ....
- فيه رأي بيقول أنكم موجودين في كل حتة.. دي حقيقة؟
- الناس بتحب المبالغات
- طب حضرتك انتم موجودين فين
- في كل حتة
- هو المفروض الناس تخاف منكم؟
- لا
- امال المفروض إيه
- أعمل الصح
- اللي هو إيه حضرتك
- محدش بيسأل على الصح والغلط وهو عارفهم.
- طب ساعدني
- اللي يساعد نفسه بيجمد قلبه
- بس إحنا مش متعودين على كده
- أمال اللي حصل في ٢٥ يناير و٣٠ يونيو ده إيه؟
- مدد من ربنا

obeikandl.com

– خلاص اطلب المدد تاني

– طب سؤال أخير..

– ما أنت سألت كام سؤال أخير

– معلش اعذرني.. الواحد مرتبك شوية

– انجز

– انتوا بتختاروا الوزراء إزاي؟

– ؟؟؟؟!!!!!!!

– أيوه حضرتك.. إزاي؟

– $٪*@٪&$*@٪&#@&&&(*(^&#$$^&^^&#$#$@$

– أنا برضه قلت كده.

obeikandi.com

من الذي حرر محضرًا ضد سلمى؟

كانت سلمى- وهي ممثلة أو راقصة أو مسجلة آداب أو كل ما سبق- تجلس في كافيه بالمهندسين بصحبة عدد من أصدقائها، يسحبون نفس الشيشة، الذي يجمع بين طعم الكانتلوب والبطيخ في مزيج أسطوري، وهي تظهر لهم عبر هاتفها المحمول كيف أن كليبها حقق أعلى المشاهدات على يوتيوب، عندما دخل عليهم صاحب الكافيه وهو يصرخ: "كبسة.. حكومة»، فألقوا سريعًا بالموبايل دليل الإدانة، قبل أن تدخل الفرقة - مكونة من ٧ ضباط برتب تخض العيل في اللفة، وهم بالترتيب عدد ٢ عميد و٥ مقدم- لتلقي القبض على سلمى واثنين آخرين من أصدقائها، ثم يزجون بهم في سيارة الشرطة، التي وصلت سريعًا إلى مقر النيابة، ليسجنوا جميعًا ٤ أيام على ذمة الاتهام ب«الإتيان بإيحاءات وحركات جنسية».

وبغض النظر عن أن فرقة الشرطة المكونة من هذه الرتب، لم نرها تحارب أحمد السقا في فيلم "الجزيرة"، رغم أنه حينها كانت أخطر من أبو بكر البغدادي، قامت بإلقاء القبض على سلمى وشركائها وهم في كافيه، وليس في جزيرة محصنة أو ملغمة، فإن المدهش أن خبر إلقاء القبض على بطلة «سيب إيدي»، ذيل في كل المواقع والصحف بجملة واحدة «وبتحرير

obeikandl.com

محاضر ضدها، أمرت النيابة بضبطها وإحضارها».

جميل، هناك إذن من حرر محضرًا ضد سلمى متأذيًا من كليبها الخادش، مين بقى؟ لا أحد يعرف.

تستخدم جوجل العادي، جوجل إيرث، جوجل ماب، جوجل ترانسليشين، ولا الهوا، النتيجة واحدة، قبضوا عليها بعد تحرير محاضر من شخص أو جهة مجهولة، من فعلها؟

هل يكون نجم البلاغات حسب الطلب المحامي المغمور المشهور؛ لأن اسمه هو اسم الممثل المعروف «سمير صبري»؟ محصلش، لو حصل، لكان سمير قد خرج على كل الفضائيات يتحدث عن انتصار العفة في حرب الرذيلة، مؤكدًا أنه سيظل سيفًا لحماية هذا الوطن من الساقطات، اللائي يعرفهن واحدة واحدة و«هافضحهم كلهم».

هل يكون صاحب المحضر المجهول هو عنتيل بلاغات المحامي السيد نبيه الوحش؟ ليس كذلك للأسف، لو كان هذا صحيحًا لأفرد له العزيز وائل الإبراشي ١٠ حلقات متصلة منفصلة في برنامجه الفضائي، ليقوما معًا بتحليل كل مشهد وحركة في الكليب، ليفسروا الدلالات الاجتماعية والسياسية لجملة «سيب إيدي»، وكيف أن تقديم «سيب» على "إيدي" وليس العكس، يحمل معنى مخمليًا انبعاجيًا ميتافزيقيًا.

هل يكون مواطنًا شريفًا شاهد ابنه وهو «مش على بعضه»، بعد أن تابع سلمى وهي تتلوى في الكليب؟ وارد، وما أكثر المواطنين الشرفاء في هذا البلد، لكن لماذا لا يعرفنا أحد بهذا الرجل المجدع لنشد على إيديه، ولنعرف هل عاد نجله

obeikandl.com

«لبعضه» بعد القبض على سلمى، بينما استمر كليبها يحقق مشاهدات كبيرة على الإنترنت؟

هو فين المحضر؟ هذه ليست تلاكيك حضرتك، لكن لو أصبحت القاعدة في هذا البلد هو «قيام مجهول بتحرير محضر»، وإلقاء القبض على أي شخص بتهمة «الإتيان بحركات جنسية»، فمفيش حد هيبات ليلته إلا في الحجز سيادتك.

أولا، المجهول هذا معلوم للدولة طبعًا؛ لأن مفيش حاجة بتستخبى على الحكومة، فمن يضمن ألا يتم استدعاء هذا المجهول ليحرر محضرًا ضد أي بنى أدم، عندما تريد الحكومة ذلك؟ ثانيًا، الإيحاءات الجنسية هذه، ومن اسمها مجرد إيحاءات، وهو ما يعني أنها تصلح للتطبيق وقت المزاج أيضًا، وقد تتحول باختلاف الزمن والحاجة إلى إيحاءات سياسية أو دينية أو اجتماعية أو شيء ينتهي بـ«ية»، مع مراعاة أن مقطع كبير من حياة المصريين عبارة عن إيحاءات جنسية.. يا راجل وهل هناك بلد في الدنيا، يتبادل فيه سائقو السيارات السباب الجنسي باستخدام الكلاكس سوانا؟!

هل هذه سطور للدفاع عن سلمى أو للمطالبة بالإفراج عنها؟ لو استشعرت ذلك فهذه مجرد إيحاءات، ثم أن القانون وحده هو الذي يحدد مصيرها، المهم في الأمر أن يطبق القانون ذاته عليها - وعلى غيرها من المتهمين في أي قضية - القانون كاملا وليس بعضًا من إيحاءاته، ولأنه إذا أردنا أن تتوقف سلمى وأخواته عن «سيب إيدي»، فعلينا نحن أن أيضًا أن نمسك في القانون «مش نسيبه».

القصة المدهشة لـ «يارا» و«مازن»

بـدأت الحكايــة فــى يونيــو ٢٠٠٨ عــبر ورشــة للصحافــة الثقافيــة، نظمتهــا مؤسســة "المــورد الثقافــى" علــى نطــاق عــدة بلـدان عربيــة، وكان مــن المفــترض أن تقـام فاعليتهـا فــى لبنــان، ولكـن وبسـبب التوتـرات المعتـادة حينهـا بين حـزب الله وإسـرائيل، انتقلـت الورشـة بقـدرة قـادر مـن بـيروت إلى ٦ أكتوبـر!

كان المـرء محبطًـا؛ لأن فرصـة السـفر خـارج مصـر لأول مـرة فاتتــه، لكـن الله عـوض، بـأن التقـى مجموعـة اسـتثنائية مـن الصحفيـين والمهتمـين بالثقافـة مـن سـوريا والعـراق والأردن، وفلســطين ولبنــان وتونـس، والمغــرب والجزائــر.

وخــلال أسـبوع - هــو عمـر الورشــة - اكتشـفنا أننـا لا نعـرف سـوى أقـل القليـل عـن بلداننـا، وأن هنـاك بعـض النعـرات العصبيـة والشـوفينية الفارغـة، التـى تظهـر عـادة فـى مثـل هـذه التجمعـات، لكـن ذلـك لم يمنعنــا مــن التعلـم والاسـتفادة والمـرح وتكويـن الصداقـات، والوعـود بزيـارات كل فـى بلـده، لم تحـدث غالبًـا.

كانــت "يــارا بــدر" هــى الفتـاة الوحيـدة فـى الفـوج السـورى، مرحـة، منطلقـة، تشـاغب الجميـع، تهوى أفـلام الأبيض والأسـود، خاصـة تلـك التـى يحمـل فيهـا البطـلان أسمـاء "أحمـد" و"منـى"،

تعشق المسرح والدراما، وكتبت بعد عودتها إلى بلادها مقالاً نقديًا لافتًا عن مسرحية "قهوة سادة"، تقفز بذكاء فوق أى خلافات عربية - عربية، تظهر بين أعضاء الورشة، وتبحث عما يجمع ولا يفرق، حتى لما عاد كل إلى وطنه، اقترحت هى أن تظل "الشلة" على تواصل عبر "مجموعة بريدية"، وهو اختراع أسطورى عجيب - فى زمن ما قبل فيس بوك - يجعل المرء يكتب بريدًا إلكترونيًا من مصر، فيقرأه ١٠ غيره فى عدة بلدان أخرى فى نفس التوقيت!

وكعادة الأشياء التى تبدأ متوهجة ثم تخفت، تراجعت وتيرة الرسائل الجماعية، وانشغل كل منا بدنياه "اللطيفة قطعًا"، ثم دبت روح الثورات فى عروق عدة بلدان عربية، وكان مدهشًا أن أرى صديقنا الأردنى "طارق"، الذى رافقنا فى الورشة الثقافية ذاتها قبل عامين تقريبًا، وهو يهرول حاملاً كاميرته الأُثيرة، هاربًا من آثار قنابل الغاز المسيل للدموع فى أحد الشوارع المتفرعة من ميدان التحرير فى ذروة ثورة يناير، قبل أن يذوب مع الذائبين، ولا أشاهده بعدها قط، وبعدها بأسابيع، بدأت القصة الفريدة والمدهشة لـ"يارا" و"مازن".

بدأت الثورة السورية بيضاء تسر الناظرين، قبل أن يتسلل إلى صفوفها أهل الكراهية والموت والذبح. وفى الشهور الأولى البكر لهذه الثورة، وجدت يارا نفسها منحازة بطبيعة الحال للحرية، التى يطالب بها أبناء وطنها، وفى القلب منهم كان "مازن درويش"، الصحفى الشهير والحقوقى البارز، هكذا اصطف الاثنان فى مواجهة بطش وعنف النظام فى سوريا،

Obeikandl.com

الذى ظن أنه بجرعة قسوة زائدة، سيحاصر التحركات الهادرة، فإذا بالأمر يفلت منه برمته لاحقًا، ليخرج ثلثا البلد عن سيطرته وسيطرة أهل البلد أنفسهم، ورغم أن يارا ومازن كانا فى مهمة ثقيلة دفاعًا عن قيم ووطن وحياة فى قلب حرب أهلية مرعبة، ملامحها بدأت فى الظهور ونهايتها لا تبدو فى الأفق أبدًا، إلا أنهما انتصرا للحياة التى يتطلعان إليها، وتزوجا بعد سبعة أشهر من البدايات الصاخبة لثورة الشعب السورى.

فى فبراير ٢٠١٢، وبعد خمسة أشهر بالضبط من الزواج، اقتحمت المخابرات الجوية السورية مقر المركز السورى للإعلام وحرية التعبير، الذى أسسه مازن درويش، ليصبح نافذة يطل منها العالم على الواقع الصعب فى سوريا، كانت التهمة تقليدية للغاية وسبق استخدامها بدرجة مملة فى أنظمة استبدادية عدة "الترويج لأعمال إرهابية"، ثم تم اقتياد العريس الجديد إلى مقر أمنى مظلم ومرعب وسرى وانقطعت أخباره تمامًا، هكذا فجأة، وجدت العروس "يارا" نفسها وحيدة، مهددة بفقدان الوطن والحبيب، لكنها أبدًا لم تيأس.

عرفت بقصة يارا ومازن من الصحف العربية، كان ذلك يومًا دراميًا، أن تقرأ فجأة أخبارًا تتعلق بصديق قديم فتكتشف أنه فى معاناة إغريقية حقيقية، وأنت لا تملك سوى بضع كلمات مرتشعة للدعم والتطمين على فيس بوك، فتجد اليقين بالانتصار والثقة فى عودة الوطن والحبيب، هى التى تأتيك ممن يحمل الأثقال كلها فوق قلبه وروحه.

تحول سجن مازن درويش إلى قضية عالمية، كانت يارا

لا تدافع عن حرية زوجها وصحبته من أهل الرأى المعتقلين فحسب، وإنما تدافع عن حقها وحق أبنائها فى وطن يتسع الجميع، كان مدهشًا أن هذه السيدة التى تهوى أفلام رشدى أباظة، هى نفسها التى تقاوم ببسالة بطش نظام يرى كل من على الجانب الآخر أعداء يجب قتلهم.

كم ظل مازن فى المعتقل؟، ثلاث سنوات وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، بعد ضغوط داخلية ودولية عدة، خرج فى العاشر من أغسطس الحالى على ذمة القضية، وقد نال خلال فترة السجن اثنتين من أرفع الجوائز العالمية، الأولى هى جائزة "مراسلون بلا حدود"، والثانية هى جائزة "اليونسكو العالمية لحرية الصحافة"، من تسلم الجائزتين نيابة عنه؟ وهل هناك سوى يارا؟ التى بدورها وعقب يومين فقط من خروج مازن من السجن فازت بجائزة "هيومان رايتس ووتش" للنشاط الاستثنائى.

ما الدروس المستفادة من هذه القصة؟ الكثير عن المصائر والعلاقات الإنسانية والدوائر التى تجمعنا وتفرقنا، والثمن الذى يجب أن ندفعه من أجل الحرية، والشجاعة والصبر واليقين، الذى يجب أن يرافقك فى رحلة العمر، ولعل الدرس الأهم هو أن الحب عابر للسجون والزنازين، ومحترفى القتل، وسارقى الحياة والأوطان، وأنه ينتصر، ولو بعد حين.

obeikandl.com

توم كروز في شقة العجوزة

في الربـع الأخـير مـن فيلـم مهمـة مسـتحيلة ٥ «أمـة مارقـة»، وبعـد مطـاردة أسـطورية بالدراجـات البخاريـة في شـوارع المغـرب المدهشـة، تجـد عميلـة المخابـرات البريطانيـة «إيلسـا»/ ريبـكا فيرجسـون، نفسـها جالسـة أمـام زعيـم فريـق مهمـة مسـتحيلة فائـق الشـهرة «إيثـين»/ تـوم كـروز، وقـد بـدا أن الاثنـين قـد خسـرا معركتهمـا مـع زعيـم التنظيـم العصابـي المجنـون «سـولمان لايـن»، الـذي يسـعى لنشـر الفوضـى والإرهـاب في أركان العـالم.

"تـوم كـروز" يريـد اسـتكمال المهمـة المسـتحيلة؛ لأنـه يعـرف أن هـذا قـدره، بينمـا الحسـناء السـويدية الأصـل، لديهـا عـرض لا يقـاوم : »دعـك مـن كل هـذا الجنـون، وتعـال معـي». بالمصـري «فـكك مـن ولاد الـ... دول، وتعـالى نطلـع شـقة العجـوزة"، وأمـام نظـرة البطـل الهوليـودي الوسـيم المندهشـة والمتسـائلة، الـتي يتبعهـا بالسـؤال المنطقـي «ومـن سـيقضي علـى القاتـل الموتـور «لايـن»؟»، سـتجيب ريبـكا بمنطـق وجـودي عظيـم «سـيكون هنـاك دومًـا «لايـن»، وسـيكون هنـاك دومًـا أشـخاص مثلنـا لمحاربتـه»، ولأن الفيلـم «متكلـف» وجـرى تصويـره في أربعـة بلـدان علـى الأقـل، ولا يصـح أن ينتهـي بمشـهد حميمـي في «شـقة العجـوزة»، سـيرفض تـوم كـروز العـرض، وسـيكمل أحـداث الفيلـم المثـيرة، وسـينتصر علـى

obeikandl.com

«لاين» المجنون، قبل أن تودعه البطلة بابتسامة ساحرة وجملة موحية «أنت تعرف كيف ستجدني»َ.

وبغض النظر عما إذا كان توم كروز سيصعد إلى شقة العجوزة في الجزء السادس من «مهمة مستحيلة» أم لا، فإن حكمة الآنسة إيلسا لا تقف حدودها عند فيلم مثير، مثل مهمة مستحيلة فحسب، بل يبدو أنها كانت تروى جانبًا من قصص تحدث كل يوم على ظهر هذا الكوكب، وملخصها أن الشر لا ينتهي أبدًا، ولديك قصة «عمر بونجو» مثالا ساطعًا.

بونجو حتى وفاته عام ٢٠٠٩، كان أطول الحكام بقاء في مناصبهم على مستوى العالم، وحينما تولى رئاسة الجابون عام ١٩٦٧ عقب سبع سنوات فحسب من استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسي، كان حينها أصغر رئيس في العالم، لكن الاستقلال كان ظاهريًا قطعًا، إذ ليضمن بقاءه في السلطة منح بونجو، فرنسا «المستعمر القديم» حق تنقيب شبه حصري عن البترول، الذي بدأ يتفجر للتو في الغرب الأفريقي، ليس هذا فحسب، بل إن بونجو- وبحسب كتاب مافيا إخفاء الأموال المهربة بترجمة البارزة د.فاطمة نصر- متّعها الله بالصحة- أصبح لاعبًا رئيسيًا في شبكة فساد سرية تدعم أنشطة الحزب الفرنسي اليمني، وعمليات مخابراتية، ورشاوي في ألمانيا وتايوان وفنزويلا، وقد وصل الأمر إلى حد أن عمر بونجو قام بنفسه بتسليم حقيبة مليئة بالدولارات لشخص وسيط؛ ليقدمها رشوة للانفصاليين في انجولا المجاورة، من أجل حماية مصالح شركات النفط الفرنسية! ، هكذا كان من الطبيعي أن يكون أول

حاكم يتصل به الرئيس الفرنسي «ساركوزي» عقب إعلان فوزه في الانتخابات عام ٢٠٠٧، هو الرئيس «عمر بونجو» قطعًا، وليس رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مثلا.

تسأل أنت؛ ما الذي حدث بعد وفاة عمر بونجو إذن؟ هل انهارت شبكة الفساد الممتدة بين قارات العالم، والتي تعيش منذ أكثر من أربعين عامًا متصلة؟ أمرك عجيب، قطعا لا، ألا تعلم أن الرئيس الذي يتولى مقاليد السلطة في الجابون الآن، ويعيش في قصر رئاسي يحميه فريق من كوماندوز الجيش الفرنسي عبر نفق سري، هو «علي عمر بونجو»؟!

كانت «إيلسا» صادقة إذن وهي تدعو توم كروز لشقة العجوزة، إذا قضينا على لاين سيظهر ألف لاين غيره، مات عمر بونجو، لكن نجله علي أكمل المسيرة المشينة، غادر ساركوزي القصر الرئاسي الفرنسي، لكن شبكة الفساد التي تشفط بترول الجابون وتحوله إلى مليارات، تستخدم في الأعمال القذرة لا تزال تعمل بكفاءة، إزاحة مبارك من الحكم في ٢٠١١، لا تعني التخلص من أركان نظامه أو منعها من التجذر في ثنايا الدولة، عزل الإخوان من السلطة في ٢٠١٣، لم يبتر قدرتهم على اللعب في العقول وتزييف الحقائق واجتذاب مجاذيب جدد. الشر يتكاثر وينمو أسرع مما نتوقع، وأسرع من قدرتنا على مواجهته؛ لهذا ستجد نفسك دومًا أمام هذا الخيار الصعب، استكمال المهمة المستحيلة، أو الرضوخ لإغراءات الصعود إلى شقة العجوزة، وأنت وحدك من يقرر مصيرك، لكن النصيحة الأخوية المخلصة هي أنه إذا كان العرض المقدم لك يخرج من

بـين شـفتي فاتنـة سـويدية مثـل «ريبـكا فيرجسـون»، رجـاء، مـا تعملـش فيهـا تـوم كـروز.

obeikandl.com

تلميذة الابتدائي تهزم أساتذة الجامعة

«خلال بداية صيف عام ١٩٩٥، بعد أن أعلنت المحكمة إنهاء زواجي، تلقيتُ مكالمة تليفونية من امرأة لها ابنة بالمرحلة الابتدائية، كانت المرأة محترمة للغاية، أخبرتني: «ابنتي في المرحلة الابتدائية، لكنها منزعجة للغاية من الحكم بإجبارك على التفريق بينك وبين زوجتك.. هل يمكننا زيارتك؟».. على الرغم من المسافة بيننا، فإنهم جاءوا بالفعل لزيارتنا، كنت سعيدًا لاستقبالهم .. وعلى الرغم من أنها كانت فتاة صغيرة، كانت تأخذ الدين بجدية، فلقد أصرت على ارتداء الحجاب.. لم يعرفوا القليل أو اللاشيء حول كتاباتي وأبحاثي.. لم يستطيعوا أن يفهموا طبيعة الجرائم، التي يفترض أني ارتكبتها.. لن أنسى يومًا محبتهم ومساندتهم.. لقد كانت تلك الزيارات مصدر قوة وراحة».

بهذه التلقائية العميقة، روى د. نصر أبو زيد، أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية (١٩٤٣–٢٠١٠)، جزءًا من سيرته الذاتية التي صدرت أخيرًا مترجمة عن الإنجليزية في كتاب ممتع بعنوان «صوت من المنفى» عن دار «الكتب خان»، كانت قضية التفريق بين د.نصر وزوجته د.ابتهال يونس، عنوانًا رئيسيًا لسنوات التكفير في التسعينيات من القرن الماضي، في هذه السنوات غير البعيدة واجهت الدولة موجات التطرف

الإسلامي المشتدة بطريقة «أنا ومن بعدي الطوفان»، رفعت الغطاء عن المجددين، وأصحاب الفكر الذي يخالف السائد والراسخ، وتركتهم في المعركة وحدهم مع أهل التكفير والقتل، وهكذا في أيام معدودة وجد أبو زيد نفسه كافرًا بحكم قضائي، ثم مطالبًا بالانفصال عن زوجته؛ لأنه أصبح بحكم القانون ليس مسلمًا مثلها، ووسط هذا الجحيم الذي لا يصدق، جاءته تلك الفتاة الصغيرة التي لا يزيد عمرها عن ١٢ عامًا، لتعلن تضامنها معه ومع زوجته، وترفض أن يفرق أحد – دولة كانت أو تنظيمات أو كيانات – بين قلبين وروحين، وجد كل واحد منهما سكنه في الآخر، تلميذة الابتدائي هذه لم تكن تعرف القصة من بدايتها، وكيف أن تكفير نصر أبوزيد خرج أولا من آخر مكان يمكن أن يقابل فيه التفكير بالتكفير، نتحدث هنا عن جامعة القاهرة، ولم تكن تعرف أن جريمة أبو زيد الكبرى أنه تقدم بأوراقه لنيل درجة الأستاذية في كلية الآداب عام ١٩٩٢، وأن هذه الأوراق جمعت بين ١١ بحثًا وكتابين، ضمن هذه الأبحاث واحد، تحدث عن وجود نسخ محرفة من المصحف ظهرت عبر التاريخ، تلميذة الابتدائي لا تعرف أن كلمة مصحف لا تعني مطلقًا القرآن، المصحف هو الكتاب الذي يجمع القرآن، لكن القرآن نفسه ليس هو المصحف، فالقرآن انتقل بالحفظ الشفهي أولا، قبل أن يتم تدوينه، ولأول مرة وفي نسخة موحدة في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان، هي لا تعرف ذلك بكل تأكيد، لكن أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة حتمًا يعرفون، وعندما يكتب أبوزيد ذلك، فهذه قضية جدال علمي وتاريخي، مكانها الرئيسي، وربما الوحيد، أروقة

الجامعات، لكن هذا لم يكن رأي أستاذ في تاريخ القرآن، يعرف باسم عبد الصبور شاهين.

جاءت تلميذة الابتدائي لأبوزيد لتعلن تضامنها مع قصة حبه لزوجته، بغض النظر عن خلافات أكاديمية أو رغبات تكفيرية، تضامنت معه فيما تعرفه وفي قيمة عابرة للأزمنة والأماكن والأجيال.. الحب، لكن المعركة كانت مروعة ومتسارعة، منعًا للجدل وبعدما تسربت الأخبار، أجلت جامعة القاهرة ممثلة في رئيسها، وبتنسيق مع أجهزة الدولة، قرار منح درجة الأستاذية لنصر أبو زيد، كان الاتفاق شبه العلني «ستنالها، لكن ليس الآن»، في هذه السنوات كانت الجامعات الإسلامية المتطرفة تسيطر على أحياء كاملة في القاهرة «إمبابة نموذجًا»، وقرى «من بابها» في الصعيد. محاولات بناء دولة دينية، وإحياء الخلافة بدأت هنا بالمناسبة، قبل أن تتبناها داعش في سوريا والعراق بعد ذلك بسنوات، الدولة آنذاك هشة ورأسها يريد تأمين حكمه، فلينتظر أبوزيد قليلا، العلم لن يخسر أبحاثه، بينما قد نخسر نحن أرواحنا إذا وافقنا عليها، الأهوال التي صنعها المتطرفون في هذه الأوقات العصيبة أجبرت الجميع على القبول بالأمر بمن فيهم أبو زيد نفسه، «كان صوت الرصاص الذي اغتال الكاتب فرج فودة؛ لأسباب مشابهة لا يزال مدويًا في الأذن»، لكن عبد الصبور شاهين، أشعل النيران في الجميع عبر خطبة جُمعة «حرّاقة» في مسجد يؤمه آلاف أسبوعيًا، هو مسجد عمرو بن العاص، في مايو ١٩٩٥ صرخ شاهين من على المنبر «نصر أبو زيد مرتد»، رددها وراءه كثيرون، في الجمعة التالية، فعلها خطباء آخرون، بمن فيهم خطيب الجمعة في

بلدة قحافة الصغيرة المتاخمة لطنطا، البلدة التي ولد فيها نصر أبوزيد شخصيًا، بعد «إعلان الكفر» عبر المنابر بعدة أسابيع تقدم سبعة محامين مغمورين برفع دعوى قضائية، تطالب بتفريق أبوزيد عن زوجته بعدما أصبح ثابتًا في يقين المجتمع بأنه كافر، أبواب الجحيم انفتحت، فمن يستطيع المقاومة؟

وصلت المهزلة لذروتها بصدور قرار بتفريق الزوجين فعلا، كان الحكم صادمًا ومروعًا، كيف لأشخاص عابرين أن يطالبوا بدعوة لتفريق زوجين، فتصدرالمحكمة حكمًا يقضي بالتفريق فعلا، دعك من أصل القصة، والتي هي تعود لبحث علمي صار مستندًا للتكفير، بعد جولات قضائية عدة، صدر حكم نهائي يقضي بتكفير أبو زيد مع ضرورة تفريقه عن زوجته، كان الإسلاميون المتطرفون يصرخون في المنابر يطالبون برأس «المرتد أبو زيد»، وشارك أيمن الظواهري – زعيم تنظيم القاعدة الحالي – الذي كان حينها «شبلا إرهابيًا صغيرًا» في المعمعة بأن أصدر فتواه بإهدار دم أبو زيد، أما الدولة فرغم صدمة العالم مما حدث، فإنها ارتأت أن الحل الوحيد هو أن تُغمض عينيها عن الأستاذ الجامعي وزوجته، عندما يسعيان للهروب من هذا الهول الذي يحيط بهم.

هكذا خرج د.نصر أبو زيد وزوجته من مطار القاهرة في الذكرى الثالثة والأربعين لثورة يوليو، تحديدًا في مساء الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٩٥، في طريقها لإسبانيا، التي أنقذتهما بمنحة دراسية للزوجة، ومنها انتقل أبوزيد ليصبح أستاذًا للغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة «لايدن»

الهولندية، حتى وفاته منفيًا من الوطن في جريمة لا تساقط بالتقادم أبدًا، قبيل رحيله عاد د.أبوزيد للقاهرة زائرًا عدة مرات في زيارات استطلاعية متوجسة، القانون المعيب الذي يعرف باسم الحسبة، والذي يتيح للعابرين رفع دعاوى قضائية للتفريق بين أي زوجين بحجة أن أحدهما كافر، سقط وللأبد عام ٢٠٠٠، لكن الآثار المروعة لم تزل بعد، التقى أبوزيد بأصدقائه وتلاميذه أكثر من مرة في هذه الزيارات، لعله في واحدة منها أو أكثر كان يريد أن يلتقي بـ«تلميذة الابتدائي»، التي جاءته إلى المنزل لتعلن تضامنها معه.

لا أحد الآن يعرف مصير هذه التلميذة التي تحدت إرهاب مارسه أساتذة بالجامعة، غالبًا أصبحت أمًّا لتلميذة أخرى في المرحلة الابتدائية، هل تزوجت من رجل متشدد لا يزال يرى في أبوزيد كافرًا ومرتدًا؟ ويحلم باليوم الذي ستعود فيه دولة الخلافة لتزيح كل أعداء الدين؟ أم أن القدر كان رحيمًا بها فتزوجت رجلا مصريًا بسيطًا، خرج في ثورة يناير يهتف بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية، ومنح صوته للإخوان في الانتخابات، قبل أن يهتف بسقوط حكم المرشد في ٣٠ يونيو؟ هل روت لابنتها قصتها مع نصر أبوزيد، وقصته هو نفسه مع العلم والحب والتكفير والمنفى؟ أم لعلها نست كل ذلك في زحمة الدنيا؟ هذه أسئلة من الصعب الإجابة عنها، لكن ثمة أسئلة أخرى علينا أن نعرف إجابتها مثلا..، لماذا لا تقرر وزارة التربية والتعليم سيرة نصر أبوزيد للتدريس على طلاب الثانوي؟ هل تبحثون عن قصة مشوقة ومثيرة؟ وهل هناك أكثر إثارة من ذلك؟ هل تبحثون عن سيرة ملهمة، تغرس قيمة العلم

والكفاح ومقاومة التطرف؟ فهل هناك أكثر إلهامًا هذه السيرة؟ ألا تريدون أن ينتقل طالب الثانوي للمرحلة الجامعية، وهو يعرف أن السبيل الوحيد لمواجهة التكفير هو التفكير؟ يدرس طلاب الثانوي في مصر قصة الأيام للعلامة الكبير طه حسين، وهي سيرة كفاح مشرفة وملهمة قطعًا، لكنها تتخذ من تحدى الظروف القاسية منهجًا، فلماذا لا نجرب هذه المرة أن يكون الإلهام عبر تحدي أهل التكفير والقتل، خاصة وأننا نعيش سنوات التكفير والقتل بامتياز؟

لا مواجهة إلا بتوفر الإرادة والشجاعة، ولا انتصار على ذابحي داعش وقاتلي جنودنا في سيناء، ومفجري الناس الغلابة في المدارس والشوارع ومراكز الشباب في كل شبر في مصر، إلا بإحداث ثورة حقيقية في التعليم، تغسل مناهجه من ركام وغبار سنوات بائسة، وتربي أجيالا تعرف قيمة التفكير الحر دون إرهاب أو صناعة للرعب، يقول نصر أبو زيد في سيرته الذاتية الراسخة والملهمة: «أعرف جيدًا أن أبحاثي مثيرة للجدل، وأني أحمل عبء التنقل بين الأفكار، لكن أليس هذا هو الهدف من المؤسسة الأكاديمية والبحث؟»، إن جيت للحق، هذا يجب أن يكون هدف التعليم في كل مراحله ومؤسساته، ولعل هذا ما أدركته تلميذة الابتدائي بفطرتها، قبل نحو ٢٠ عامًا عندما ذهبت لمنزل نصر أبو زيد، متضامنة وداعمة، وحان الآن وقت غرس هذه القيم في نفوس أبناء هذه التلميذة، لعل ذلك ينقذ أجيالا، ويصنع وطنًا، لا منفى .

نجيب محفوظ في زمن «النحلة أم بزوز»

في المحن والأعطاب، التي تصيب عروق وشرايين الحياة وما أكثرها، يأتي أدب العالمي نجيب محفوظ كجرعة «أنتي بيوتك» فعالة، يظهر تأثيرها في دقائق فور أن تمر الكلمات من الورق إلى الدماغ والروح.

هكذا يصبح من الطبيعي أن تقلب في «روشتات» أديب نوبل بين الحين والآخر، النصيب هذه المرة جاء في روايته البديعة – وهو وصف ستجد نفسك مطالبًا به، وأنت تتحدث عن كل رواياته تقريبًا – المعروفة باسم «المرايا»، في طبعة الجيب الجميلة والرخيصة التي أصدرتها «مكتبة مصر»، الوكيل الأدبي الرئيس لنجيب محفوظ وأحد أول دور الطباعة التي نشرت إبداعه في الأربعينيات من القرن الماضي، قبل أن تؤول حقوق النشر لاحقًا لدار الشروق، وإن ظلت طبعات مكتبة مصر برائحة ورقها المميز وخطوطها اللافتة، ولوحات الفنان البارز جمال قطب، التي تزين الغلاف والصفحات الداخلية أكثر حميمية واقترابًا من عالم نجيب محفوظ.

طبعة الجيب هذه، التي ظهرت في بداية الألفية الثانية، كانت إذن هي أول طبعة شعبية تظهر للكتب في مصر، في وقت

obeikandi.com

كانت فيه الطبعة الشعبية الرخيصة فكرة مستوردة عصية على التطبيق المحلي؛ لأن السوق كان محدودًا بالأساس، ولأن ظاهرة الكتب المزورة لم تكن قد ظهرت بعد، المفارقة أن أول من طبق الفكرة هي دار نشر كبيرة في السن، مثل مكتبة مصر، كانت قبل أكثر من نصف قرن «الكشاف»، الذي قدم للعالم أسماء بقامة وقيمة نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهما.

الطبعة الشعبية هذه لا تزال تباع حتى يومنا هذا بالمناسبة، وعبرها يمكن أن تقتني جل أعمال نجيب محفوظ بأسعار خرافية تتراوح للكتاب الواحد بين ٤ جنيهات و١٥ جنيها فقط، وهو سعر أقل من ثمن وجبة «الهابي ميل» الماكدونالدزية، علمًا بأن روايات نجيب محفوظ، لا تسبب عسر الهضم أو الحموضة بكل تأكيد، كما أن ذلك سيقلل من مبيعات المطعم الأمريكي الأصل، وسيدعم السيدة «أم حسن»، في معركتها العنيفة أمام جحافل الفرانشايز لنصرة الرأسمال الوطني.

في طبعتنا الشعبية تلك من رواية «المرايا»، التي كتبها نجيب محفوظ عام ١٩٧٢ ستعرف من فورك الفارق بين الأدب الخالد والكتابة «الطياري»، وكيف أن النوع الأول راسخ وصلب يعيش أبدًا، ولا يموت، وكلما قرأته كلما اكتشفته، بينما النوع الثاني رذاذ عابر كالعطور المقلدة، التي ينصب بها طلاب الثانوي على بنات المدارس. تخيل مثلا أن عبارات مثل «السياسة تؤدي بنا كل يوم لمحنة جديدة»، و«لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير الحر»، و«اعبدوا الحقيقة عبادة، ليس ثمة ما هو أثمن ولا أجل منها في

الوجود، اعبدوها واكفروا بأي شيء يتهددها بالفساد»، مكتوبة منذ أكثر من ٤٠ عامًا، رغم طزاجتها، التي تكاد تشعر بسببها إنها مكتوبة بالأمس.

على أن ما يلفت النظر في هذه الطبعة الشعبية من المرايا، هي تلك القائمة بروايات وقصص نجيب محفوظ، منذ أول أعماله المنشورة عام ١٩٣٢ «مصر القديمة»، وحتى مجموعة «صباح الورد» عام ١٩٨٧، بالطبع كتب نجيب محفوظ أعمالا أخرى لاحقًا، لكن القائمة في هذه الطبعة تقف عند هذا الحد.

تكشف القائمة عن أن رواية «بداية ونهاية»، التي صدرت عام ١٩٤٩، هي أكثر روايات نجيب محفوظ انتشارًا؛ إذ طبع منها حتى عام ١٩٨٧ خمس عشرة طبعة، تليها «قصر الشوق» الجزء الثاني من الثلاثية فائقة الشهرة في ١٤ طبعة، ثم روايات السراب والقاهرة الجديدة، وبين القصرين والسكرية، وكل منها ظهرت في ١٣ طبعة. وفي كلمة موجزة في نفس الطبعة، كتب الناشر سعيد السحار عن علاقته بنجيب محفوظ، وذكر أن أول رواية طبعها له عام ١٩٤٣ «رادوبيس» اضطر أن يطبع منها ٥٠٠ نسخة فقط، بناءً على نصيحة من نجيب محفوظ نفسه؛ لأن الحرب العالمية كانت مستعرة وقتها، وبعدها حينما استقرت الأحوال، بدأ في نشر أعمال نجيب محفوظ في طبعات متعددة، كل واحدة منها تتراوح بين خمسة إلى عشرة آلاف نسخة.

ما الذي يعنيه كل ما سبق؟

obeikandl.com

أن نجيب محفوظ بجلالة قدره احتاج إلى ٣٨سنة كاملة ليبيع في المتوسط ١٠٠ ألف نسخة في ١٥ طبعة من أحد أشهر رواياته؛ أي بمعدل ٢٥٠٠ نسخة في السنة تقريبًا، بينما نحن الآن نرى روايات – وهذا تعبير مجازي للتقريب سامحنا الله عليه – لأثمان وأرباع كتاب تبيع ٣٥ طبعة بمتوسط ١٠٠ ألف نسخة في عام أو عامين، فهل معنى هذا أن نجيب محفوظ – أستغفر الله العظيم– كان على قده، بينما مؤلفو هذا الزمن الجميل من أصحاب الطبعات المتعددة، هم العتاولة الجامدون اللي يقولوا لكتاب نوبل «عنكم يا كاباتن»؟ بالطبع لا.. ده حتى عيبه في حق الأدب، بلاش في حق نوبل، مع مراعاة أنه لو أخذنا في الاعتبار الفارق الكبير بين تعداد السكان في زمن نجيب محفوظ وزمننا الحالي؛ لأدركت أن كل نسخة باعها أديب نوبل المصري بألف مما يباع الآن، وذلك بحسابات رقمية مباشرة، لا تأخذ في الاعتبار أن المطابع حينها كانت تسرق الورق من معسكرات الإنجليز لطبع الكتب، بينما الورق الآن في المطابع على قفا من يعبئ الصفحات.

دعك من أن جزءًا كبيرًا من تسويق الكتاب الأكثر مبيعًا الآن، يعتمد بشكل أساسي على « أولتراس» الكاتب على فيس بوك، وهو أمر لو قيل لنجيب محفوظ وسعيد السحار في أربعينيات القرن الماضي؛ لأصابتهما صدمة أدبية وإنسانية لا شفاء منها، حتى بشرب آلاف من سجائر كليوباترا أو أحجار معسل القص، التي أعتادا شربها على مقهى الفيشاوي.

ليس هذا حنينًا مرضيًا للماضي، أو استرجاعًا لزمن «النحلة أم بزبوز» كما تقول أكثر إعلانات رمضان شعبية، وليس طعنًا في الشرف الأدبي للكتب الأكثر مبيعًا؛ إذ إن من بينها كتب حقيقية لأدباء مرموقين مخضرمين وشباب، ولكنها محاولة لهضم التغيرات التي تطول كل الأشياء بتقدم الزمن، ومحاولة لحصار المتسللين إلى المقاعد الأولى في أزمان التحولات والموجات الجديدة، ولعلها أخيرًا محاولة لإعادة الاعتبار لكل ما يمكث في الأرض، ولشد أزر كل من يعتبر الكتابة مدد من السماء، وليست سبوبة للاسترزاق، وللتوضيح بأنه أننا لم نتخلص بعد من آثار الحرب العالمية الثانية!

obeikandl.com

الجزيرة مباشر مصر ابتسامة غامضة

في مارس ٢٠١١، وثورة يناير لا تزال طازجة كحزمة زرع خرجت للتو من الأرض، ملتهبة ومتقلبة وقلقة كأرواح شبابها، جاءني العرض: قناة الجزيرة، التي كنا ننظر إليها باعتبارها الذراع الإعلامي للثورة، ستفتتح قناة جديدة تحمل اسم الجزيرة مباشر مصر ومن قلب القاهرة، ماذا ستقدم يا اخونا وقد انتهت الثورة على خير، ومبارك تنحى «كنا سذج طبعًا كما تعرف»، يأتيك الرد: ستعمل من أجل حماية الثورة ومكتسباتها.. معانا ولا مع الناس التانيين؟ معاكم طبعًا، وهل هناك «ناس تانيين» كلنا أبناء الثورة!

هكذا في الأول من شهر أبريل التالي، وجدت نفسي أعمل في وظيفة فضائية معتبرة، يعرفها أهل الوسط بـ«منتج الهواء»، وهو شخص عليه أن يلعب أكروبات يومية، ليكون مسئولا عن بث محتويات القناة على الهواء، وينسق مع الضيوف القادمين من كل فج عميق، ويصرخ في أذن المذيعة أو المذيع بأنه «ارجع للموضوع بلاش الضيف يسرح بيك» أو «خمس دقائق ونطلع فاصل»، بعد أسبوعين فقط، أدركت أنني لست هذا «الفتوة»، وأن هذه المهنة لها ناسها، الذين يتحملون هذا الضغط العصبي والذهني، وأني سأترك هذا المكان في القريب، رغم فلوسه

obeikandl.com

الحلوة «الرواتب كانت بالدولار في زمن كانت الصحف فيه تعطي رواتب بالتقسيط»، لكن الأمر لم يكن ذلك فحسب.

كنت فردًا من ضمن العشرات، الذين يعملون في القناة، لم أكن من ضمن أعمدتها التحريرية الرئيسية، لم أشارك في اجتماعات على مستوى القيادات، لكنك لست بحاجة لأن تكون من أهل القمة حتى تعرف كيف يفكرون.

في هذه الأيام الباكرة للقناة الوليدة، لم يكن مزعجًا أن تكون غالبية العاملين من أبناء الإخوان أو المتعاطفين أو «اللي مش إخوان بس بيحترمهم»، بل على العكس كان هناك شعور داخلي لدى كثيرين بأنه حان أوان أن يحصد أبناء الجماعة ثمن سنوات الإقصاء، لكن أليس غريبًا أن يكون هيكل قمة القناة من المقربين للجماعة «لم يكن أي منهم عضوًا نظاميًا فيها»، وهو نفسه الأمر الذي يتعلق بنوعية الضيوف، لا بأس أن يظهر الإخوان ليتحدثوا.. لكن أليس كثيرًا أن يكون كل هؤلاء الضيوف من أبناء الجماعة؟ ولماذا يجب أن يكون د.محمد سليم العوا ضيفًا دائمًا وفوق العادة؟ ومعه كوادر الإخوان التلفزيونية الصاعدة مثل محمد البلتاجي وغيره؟

لم تكن هناك تعليمات مباشرة بضرورة «تلميع أبناء الإخوان» أو تبني خطاب إسلامي، لكن ذلك ما كان يحدث بالفعل دون أن يصدر قرار وبتوافق ضمني بين كل العاملين في القناة، وكأنه دستور محفوظ لكنه غير مكتوب، مع الإشارة بأن أولى استديوهات القناة المؤجرة كان مملوكًا لرجل أعمال، لا علاقة له بالإخوان مطلقًا، وإنما كانت علاقته – وهذا حقه

طبعًا – بالمال المتدفق فحسب، في خلطة غرائبية صنعتها شبكة المصالح التي تولدت عقب الثورة.

وجد المرء نفسه متورطًا في تقديم محتوى ظاهره محايد وباطنه منحاز، وبطريقة باطنية إخوانية أصيلة من نوعية «لابد من كل الآراء أن تظهر في الحلقة الواحدة»، كيف يحدث هذا يا جماعة، والضيفان أحدهما إخواني والآخر سلفي؟ هذا هو الرأي والرأي الآخر! ، لم تكن هذه القاعدة قطعًا، وفي أوقات عدة كان السيرك التلفزيوني ينصب استنادًا لنظرية «واحد ليبرالي لطيف وإخوانجي شرس»، طبعًا هذه معادلة، نتيجتها انسحاق لرأي على حساب آخر، خاصة مع وجود مذيع يدرك «سر الصنعة»، فتنتهي حلقات «صراع الديكة»، بانتصار دائم للديك الإسلامي، وبعبارة «نستودعكم الله ونراكم غدًا».

موقف القناة من المظاهرات المتضامنة في القاهرة مع التحركات الشعبية في سوريا، التي بدأت في مارس ٢٠١١ كان غرائبيًا، كنا نذيع نشرة الأخبار متضمنة خبرًا مصورًا عن مظاهرة للسوريين في ميدان التحرير، ضد نظام بشار الأسد، عندما صدرت التعليمات سريعًا بألا نهتم بمثل هذه الأخبار بعد ذلك، وأن نتجنب عرض هذا الخبر بتغطية مصورة قوية، نسأل «لماذا يا قوم»، تأتي الابتسامة الغامضة وكلمة واحدة: «الدوحة»، ثم صمت مريب، بعد أسابيع قليلة انقلب هذا الغموض وهذه التعمية المتعمدة إلى تغطية صارخة منحازة، تتحدث عن ظاهرات حاشدة ترج سوريا، وصداها ينتقل إلى القاهرة تهتف بسقوط نظام بشار، وتتبنى علم المعارضة المنسوخ

من علم سوريا الأصلي، ما الذي تغير، تأتي الابتسامة الغامضة وكلمة واحدة: «الدوحة»، ثم صمت لم يعد مريبًا هذه المرة.

بعد ثلاثة أشهر تركت العمل في الجزيرة مباشر مصر، وبعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات ونصف فقط، أغلقت القناة وأظلمت شاشتها فجأة كـ«لعبة فيديو جيم» نزع أحدهم الكهرباء منها فجأة، وموقعها الإلكتروني الذي كان ممتلأ بـ«الزخم الثوري ضد انقلاب ٣٠ يونيو الذي يترنح»، اختفى تمامًا من الشبكة العنكبوتية، وأصبح أثرًا بعد عين، ولعلك الآن تعرف أن السبب ليس من أجل المصالحة مع مصر، أو البحث عن المصلحة في العلاقات مع دول الخليج أو في استثمارات مستقبلية في «قاهرة ما بعد الانقلاب»، أو حتى من أجل صناعة دور أكثر فاعلية في معركة «داعش» وخناقة «ليبيا»، الأمر أبسط من ذلك كثيرًا.. ابتسامة غامضة وكلمة واحدة..«الدوحة».

فضيحة اللورد كوكا

تاهت هذه القصة عندما وصلت تفاصيلها إلى مصر، وبدا أن أحداثها التى وقعت فى بلد مستقر وراسخ مثل بريطانيا، لا تهم كثيرين من أهل بلدنا، الذى لا يعرف للاستقرار معنى منذ سنوات بعيدة، وذلك رغم أنه ثمة تفاصيل متشابهة ومثيرة للدهشة، كما أن القصة تفتح الباب للحديث حول «قوة الصحافة» و«قوة الفضيحة»، والأهم.. قوة القانون. بطل القصة هو «جون سيويل»، لورد بريطانى أصيل، يبلغ من العمر ٦٩ عامًا، يشغل منصبًا بارزًا هو نائب رئيس مجلس اللوردات، المجلس الأخير لا يتمتع بأهمية وتأثير مجلس العموم «البرلمان»، هو كما يدل اسمه تجمُّع لأصحاب المال والسلطات، ذو صلاحيات استشارية، مجلس الشورى بالمصرى، إذا كانت تتذكر هذا الكيان الغريب الذى اخترعه الرئيس السادات فى السبعينيات من القرن الماضى تشبهًا بديمقراطية الغرب، ثم دفنه الدستور المعدل فى ٢٠١٤.

اللورد «سيويل» الذى شغل من قبل منصب وزير لشؤون إسكتلندا بين عامى ١٩٩٧، و١٩٩٩، رغم أنه متزوج، فإنه ذات مساء وقع فى فخ مزدوج. تعاطى الكوكايين بصحبة اثنتين من العاهرات «الصحف الغربية تطلق عليهم عاملات جنس.. والفارق واضح»، كان الأمر سيمر عاديًا، لأنه ليس السياسى

الوحيد فى العالم الذى يمارس الرذيلة، أو يتعاطى المخدرات، أو يمارس فى خلق الله ما هو أسوأ من هذا وذاك، لكن البائس الوحيد بينهم هو من ينكشف أمره منهم، هو وحده الذى يدفع الثمن، وكان اللورد «سيويل» هو البائس هذه المرة.

فى عددها الصادر فى نهاية شهر يوليو ٢٠١٥، وعبر موقعها الإلكترونى، نشرت صحيفة «صن» البريطانية، صورًا ومقطع فيديو لـ«سيويل»، وهو يتعاطى الكوكايين عبر نهد واحدة من عاملات الجنس «أو العاهرات.. كما تحب أن تقرأها»، وفى مشهد تال، كان يوقع لواحدة ثانية على ورقة بقيمة مئتى جنيه إسترلينى نظير خدمة معروفة قطعًا، مَن صوَّر هذا المقطع؟ من باعه «وهل تظن أنه ذهب هكذا بالمجان للجريدة»؟ هل فعلها مورد الفتيات؟ أم الفتيات أنفسهن؟ هل هناك سياسة فى القضية؟ وهل وقع اللورد فى الفخ؛ بسبب عداوات داخل مجلس اللوردات أو داخل الحزب، الذى ينتمى إليه «العمال»؟ أو حتى بسبب عداوة قديمة مع خصم سياسى أفَلَ نجمه؟ كل شىء وارد، لكن كل هذه أسئلة طويلة المدى، من الصعب أن تعثر على إجابات حاسمة وسريعة لها فى التو واللحظة، ربما لا يكون المهم هنا هو مَن فَعَلَها، وإنما الأهم ما الذى حدث بعد ذلك؟

مفاجآت... أولا لم تعتذر «صن» للقراء عن نشر صور مسيئة، أو تسريب لجلسة شخصية، صن واحدة من أشهر صحف الإثارة فى العالم، وربما تكون أشهرها على الإطلاق، وتوزع أسبوعيًا ١,٦ مليون نسخة فى بريطانيا، لكنها رغم

ذلك صاحبة مصداقية كبرى فى مجالها، وسبق لها أن فجرت العديد من القضايا، ذات الطابع الأخلاقى والإثارى، لا تهتم «صن» كثيرًا بالانتقادات، لكنها فقط تمارس الصحافة كما تعرفها وتحبها، تكشف عن الأسرار وتزيح الأغطية، وتعرى الوشوش مهما كان الثمن. ثانيًا: لم يصدر قرار بحظر النشر فى القضية؛ لأنها تتعلق بسمعة مسؤول بارز فى واحد من أرقى وأعرق المجالس السياسية فى العالم.

ثالثًا: لم يجد اللورد «سيويل» الذى أطلقت عليه الصحف البريطانية، عقب الفضيحة، لقب «اللورد كوكا»، أى بديل، سوى أن يقدم استقالته من منصبه، لكن تمسك فى ذات الوقت بالعناد الإنجليزى المعتاد، قائلا وهو منكسر، بعدما قدم استقالته؛ إن «مسألة معرفة ما إذا كنت خالفت مدونة السلوك مهمة، لكنها تقنية أساسًا، المسائل الأهم هى معرفة ما إذا كان سلوكى ملائمًا لصفتى كعضو فى مجلس اللوردات، وما إذا كان بقائى فى المجلس سيؤثر فى ثقة الجمهور فى مجلس اللوردات، أعتقد أن الرد الأمثل على هذه الأسئلة هو أنه يمكننى أن أخدم المجلس بشكل أفضل بمغادرته، على أمل أن يساعد قرارى فى الحد من الأضرار، التى سببتها لمؤسسة أحبها وفى إصلاح هذه الأضرار، كل اعتذارى عن الألم والإزعاج اللذين سببتهما»، حسنًا الرجل هنا اعترف بأنه تسبب فى ألم وإزعاج، لكنه لم يعترف بالجريمة، هذا سلوك إنسانى طبيعى.

فى كل الأحوال انتهى مستقبل الرجل سياسيًا إلى الأبد، حتى لو برأه القانون من تهمة تعاطى المخدرات، ثم إن

مستقبله الزوجى انتهى بكل تأكيد؛ لأنه قد تسامحك زوجتك إذا تعاطيت كوكايين، لكن أن تفعل ذلك من بين نهدى فتاة ليل، فهذا مستحيل قطعًا، دع اللورد كوكا فى مأساته، وتعال نتأمل الموقف من وجهة نظر «بلدى»، ونسأل ما الذى كان سيحدث، لو تمت هذه الواقعة فى مصر؟

هى وقعت بالفعل، ذلك القاضى المتهم بطلب رشوة جنسية من متهمة لتبرئتها، يكاد يتطابق فى جريمته مع اللورد كوكا، باستثناء أنه لم يثبت تعاطيه الكوكايين، دعك من أن مَن كشف جريمة القاضى، هى الأجهزة الرقابية لا الصحافة، استقال القاضى من منصبه الرفيع، قبل أن يصدر لاحقًا قرار بحظر النشر فى القضية، دون أن يعرف أحد سببًا واحدًا لذلك.

السؤال هنا؛ هل كانت الصحافة تستطيع أن تكشف عن هذه القضية لو وصلت إليها أوراقها قبل الأجهزة الرقابية؟ ثم تعال إلى مقطع الفيديو المسرب للورد كوكا، لماذا لم يعتبر أى مواطن بريطانى أن بث مثل هذا الفيديو «انتهاكًا للخصوصية»، رغم أنه بكل تأكيد تم تصويره دون علم اللورد، إلا إذا كان «الكوكايين» عمل عمايله فى دماغ الرجل، واستأذنوه قبل تصوير الفيديو، أو ربما طلبوا منه إعادة تمثيل المقطع أكثر من مرة لضمان جودة الصورة! لاحظ أن اللورد كوكا، تمتع بحقه القانونى فى أن يصدر بيانًا يعترف فيه ضمنًا بجريمته، بينما نحن فى مصر، عندما حدثت الواقعة المشابهة، وإذا وقع مثلها، سنظل ننقل أخبارًا عن «مصدر مسؤول»، دون أن يصدر

بيان رسمي واحد من أهل الاختصاص، وكأننا نترفع بذلك عن الفظائع المرتكبة.

قصة اللورد كوكا ملهمة على أكثر من مستوى، أولا: هي نذير لأهل السياسة بأنه يسير على صراط مستقيم، لا يحتمل غلطة واحدة، وثانيًا، هي قصة تدعو للتفكير والتدبر في ما يحدث في سلوكيات البشر، عندما يملكون النفوذ والمال في نهايات العمر، وثالثًا، هي تؤكد أن المجتمعات المستقرة المتصالحة مع نفسها، هي التي تستوعب الحقيقة مهما كان مصدرها «فيديو مسرب» أو قسوتها «لورد يتعاطى الكوكايين مع فتيات ليل»، وهي نفس المجتمعات، التي لا تكتفي بالعقاب بالتجريس والفضيحة والعار، وإنما بتفعيل الحقوق والقانون، اللهم اوعدنا بالحقيقة والقانون، ولا تحوجنا كثيرًا إلى الفيديوهات المسربة.

obeikandi.com

لماذا لا يعمل الصحفي سائقًا للتاكسي؟

اندهشت كثيرًا من الاندهاش الكبير، الذي أبداه الأستاذ هشام قاسم مندهشًا في حوار مطول لموقع «إعلام.أورج» في منتصف عام ٢٠١٥، بسبب اكتشافه أن ٧٥٪ من الصحفيين العاملين في جريدة المصري اليوم، يعملون إلى جانبه في أماكن أخرى (برامج تلفزيونية غالبًا)، وأنهم لا يقدمون لجريدتهم الأم ٤٨ ساعة عمل أسبوعيًا كما ينص التعاقد.

اندهاش الأستاذ هشام، جاء بالتزامن مع قرار اتخذه هو بالاشتراك مع إدارة الجريدة لإعادة هيكلة الصحفيين بالمؤسسة ضغطًا للنفقات؛ ولمواجهة أزمات مالية عاصفة تضرب أهل الإعلام في مصر، كما يبدو واضحًا، أو لإعادة الانضباط والالتزام، ولوضع المؤسسة على الطريق الصحيح كما يقولون هم ذلك.

أما الاندهاش من اندهاش أشهر ناشر للصحف في مصر، فهو يأتي من كون أن أحد مؤسسي المصري اليوم قبل ١١ عامًا، لا يبدو مدركًا لطبيعة السوق الصحفية في بلدنا العجيب، الأمر أشبه بأن يخرج وزير التربية والتعليم؛ ليعلن أنه مندهش من أن كل تلاميذ المدارس يتلقون دروسًا خصوصية!

obeikandl.com

فالصحفي المسكين الذي تخرج لتوه من الجامعة، إذ حالفه النصيب أو الحظ، أو الكفاءة أو الواسطة للالتحاق بجريدة خاصة أو حكومية، سيجد نفسه (تحت طلب) المهنة لـ٢٤ ساعة، مقابل أن ينال راتبا يتراوح بين ٤٠٠ جنيها و١٢٠٠ شهريًا، قبل خصومات التأخير، ونفسنة المدير، أو أي شيء لزوم التكدير، وهذا الشاب الفتي عليه أنه يدبر حاله بهذا المبلغ فيأكل ويشرب ويدخن ويذهب للسينما ويعزم صديقته على حاجة ساقعة ويدفع إيجار الشقة المشتركة، ويشتري ٢ كيلو تفاح لأهله في كل زيارة؛ تعبيرًا عن الامتنان وللتأكيد على أنه أصبح (صحفي كسيب)، وأن يرتدي ملابس تليق بوظيفته، وأن يحلق ذقنه وشعره، وأن يقتني كتبًا وصحفًا، وأن يتبرع بما تبقى في النهاية إلى صندوق (تحيا مصر).

هكذا يكون من الإنساني، وليس فقط من الطبيعي، أن يبحث هذا الصحفي عن عمل إضافي، شأنه في ذلك شأن كل أصحاب المهن الأخرى في بر مصر المحروسة، ولأن الصحفي ياولداه في الغالب (مش صنايعي)، وبالتالي لا يستطيع في المساء أن يقوم بتصليح حنفيات الجيران أو ضبط وصلات الكهرباء في المحلات، أو أنه (ياخد حيطان المنازل الجديدة وش بوية)، ثم أنه في الأغلب لا يستطيع القيادة أو وافد على القاهرة، ولا يعرف دهاليز شوارعها، وبالتالي لا يستطيع أن يعمل سائقًا على تاكسي في المساء، فإن الصحفي من هؤلاء لا يجد أمامه بدًا، سوى أن يعمل في وظيفة أخرى متصلة بالإعلام أيضًا، هكذا يبحث عن أي واسطة أخرى تفتح له باب «سبوبة» في إحدى محطات التليفزيون ليبدأ سلم الإعداد من أوله، وهي في

الأغلب مهنة (شافطة) للوقت والطاقة والجهد، وتمص الحياة منك مصًا، وتضعك في توتر عصبي، لا ينتهي أبدًا، ولاتمنحك شيئًا سوى الفلوس، لكن من قال إن الفلوس ليست سببًا كافيًا للعمل؟

ثم أنه لا عدالة أو تطبيق للقانون في هذا البلد، والصحفي الشاطر من هؤلاء، قد يتم ركنه على الرف في الصحف الحكومية، إذا لم يكن على هوى الإدارة، أو قد يتم تطفيشه أو إجباره على الاستقالة في الصحف الخاصة، إذا جاء رئيس تحرير جديد لا تعجبه قصة شعره أو ليس من شلته المفضلة، بل حتى قد يجد جريدته، قد أغلقت كده ذات صباح، دون إخطار أو تعويض، أو حتى طبطبة على الكتف، وبالتالي فإن الصحفي طوال الوقت يعيش على حافة الخطر وقطع الأرزاق، إضافة إلى قتل موهبته، في ظل قوانين عمل غير مفعلة، ونقابة لا تقدم سوى البدل الشهري ونظام علاجي جيد يساعده على مواجهة الأمراض، التي تصطادك فور دخولك المهنة، وعليه فمن المنطقي جدًا أن يؤمن نفسه في مجاله بوظيفة أخرى (شريفة)، إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

فهل لا يعرف أشهر ناشر صحف في مصر، وأكثرهم خبرة واحترافًا أن هذا هو المسار الطبيعي لأي صحفي في مصر؟

هناك مسارات أخرى قطعًا، منها مراسلة صحف الخليج أو لبنان، وهناك قامات صحفية كبيرة، وبعضها شغل أو لا يزال يشغل مناصب نقابية بارزة، تعمل في صحف حكومية، بينما تراسل صحف خليجية منذ أكثر من ربع قرن، وحتى يومنا

هذا، وهو أمر لا يعيب قطعًا؛ لأن (فلوس الصحافة المصرية لا تأكلك سوى العيش الحاف.. المدعم).

الفلوس هدف بكل تأكيد، لكن على الجانب الآخر، فإن هناك طاقات صحفية لا تستوعبها الصحف بوضعها الحالي لأسباب عدة، وبالتالي فإن حصر الصحفي في قالب واحد تفرضه عليه المؤسسة، يقهر هذه الطاقات بداخله، تخيل مثلا لو أن الأستاذ هشام قاسم أصدر قراره هذا في الثمانينيات، عندما كان منتدبًا لإصلاح أحوال مؤسسة روز اليوسف، هذا معناه أننا لن نرى محاورًا فذًا، مثل مفيد فوزي معدًا تليفزيونيًا حويطًا أو مقدمًا لبرامج مغايرة؛ لأن تمامه هو (٤٨ ساعة أسبوعيًا في صباح الخير). هذا نفسه هو مصير نجم تليفزيوني استثنائي هو إبراهيم عيسى، شرحه في ذلك آخرون على اختلاف كفاءتهم، ودرجة الرضا عن أدائهم الإعلامي، مثل لميس الحديدي ووائل الإبراشي وعماد الدين أديب (طبعًا نؤيد هذا القرار بخصوص أحمد موسى ومصطفى بكري تحديدًا).

الجمع بين وظيفتين هو الأساس، وليس الاستثناء لكل المصريين، يستوي في ذلك أصحاب الصحف الخاصة، الذين يريدون أن يجعلوا صحفييهم هم الاستثناء فحسب، فالسادة صلاح دياب المالك الرئيسي للمصري اليوم، لا يعمل في صناعة الصحف فقط، بل يملك عدة شركات بترول، وشركات حلويات شهيرة، وأكمل قرطام المالك الرئيسي للتحرير يعمل في صناعة البترول أيضًا، كما أن إبراهيم المعلم المالك الرئيسي للشروق لديه دار لنشر الكتب، وشركة إنتاج سينمائي ودرامي، ومصنع

للكرتون المقوى، ومحمد الأمين المالك الرئيسي للوطن، يمتلك شبكة تليفزيون، ولديه عدة شركات أخرى في مجالات استثمار مختلفة، بل إن حتى الأهرام المؤسسة الصحفية الحكومية (الكُبرة) لديها أكثر من ١٠ شركات أخرى في مجالات عدة (من بينها مصنع للبيرة تم بيعه لمستثمر خاص قبل سنوات، وآخر لصناعة الأدوات المكتبية)، لا علاقة لها مطلقًا بالصحافة.. فلماذا على الصحفي فقط أن يكون وحده هو الملتزم بالتفرغ لمؤسسته، بينما البلد كلها شغالة في أكثر من سبوبة؟

Obeikandl.com

الكاتب

محمد هشام عبيه

مواليد ١٩٨٠– شربين– الدقهلية

صحفي

صدر له:

الكتاب الأمريكاني «أدب رحلات» ٢٠١٥– ١٨ يومًا «كوميكس» ٢٠١١– ورد وبصل «مقالات» ٢٠١٠– الحالة ميم «مقالات» ٢٠٠٩– عزيزي ٩٩٩ «مقالات» ٢٠٠٨– الإنسان أصله جوافة "مقالات" ٢٠٠٧.

فاز بجائزة نقابة الصحفيين ثلاث مرات: جائزة محمد عيسى الشرقاوي في عروض الكتب الأجنبية والمترجمة ٢٠١٥، وجائزة الصحافة الثقافية ٢٠١٤، وجائزة أحمد رجب في الكتابة الساخرة ٢٠١١.

لدعم مقالاته في الأكثر قراءة:

https://www.facebook.com/mohamed.ebia

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

.. أو لماذا تقرأ هذا الكتاب؟.................................... ٣

ركن الرئيس

أولتراس السيد الرئيس.................................... ٩
السيسي ولعنة مبارك.................................... ١٥
مدرسة السيسي.. مبارك سابقًا.................................... ٢٠
والآن ماذا سيفعل الرئيس بالبرلمان؟.................................... ٢٤
صورة جماعية للاستبداد.................................... ٣٠
ماذا يقول السيسي الإنسان للسيسي السياسي؟.................................... ٣٥
فتنة النووي.. نداهة الرؤساء.................................... ٤٠
الخطاب الديني للرئيس السيسي.................................... ٤٥
لكن من سيأتي إذا «مشى» الرئيس؟.................................... ٤٩

obeikandi.com

ركن الشعب

ما فعله المصريون في «زارا»........................... ٥٧
عودة ماكدونالدز.. ٦١
قيام وانهيار «آل نوكيا»................................ ٦٥
"فرنشايز" يا فندم؟..................................... ٦٩
لب «النصر الإسلامي»................................... ٧٤
هيثم- سخم- حسنين- كا.................................. ٧٨
سكان الدور الثاني في الأزهر............................. ٨٢
لماذا لا يشاهد المصريون التترات؟........................ ٨٥
حق الـ»بي بي» الآمن.................................... ٨٨
فلنحارب الإرهاب بالإيدز................................. ٩٢
دليلك لمعرفة الشخص «الفتاي»........................... ٩٦
خطبة جمعة بطعم «المانجو»............................... ٩٩
تلك الرائحة.. عطر «أبوكاتيا»........................... ١٠٣
لماذا لا يستيقظ الضمير مثل سراج منير؟.................. ١٠٧
عنصرية «بلاك تيما».................................... ١١٠
الجمهور الحقيقي لـ»سعيد حساسين».......................... ١١٤

حـوار مـع جهـة سـيادية.................................. ١٢١
مـن الذي حرر محضرًا ضـد "سـلمى"؟......................... ١٢٧
القصـة المدهشـة لـ»يـارا» و»مـازن»......................... ١٣٠
"تـوم كـروز" فـي شـقة العجـوزة.......................... ١٣٤
تلميـذة الابتدائـي تهـزم أسـاتذة الجامعـة..................... ١٣٨
"نجيب محفـوظ" في زمن النحلـة «أم بـزوز»..................... ١٤٤
الجزيـرة مباشـر مصـر.. ابتسـامة غامضـة....................... ١٤٩
فضيحـة اللـورد كـوكا.. ١٥٣
لمـاذا لا يعمـل الصحفـي سـائقًا للتاكسـي؟..................... ١٥٨

obeikandl.com

دلتا للنشر والتوزيع

طبع بمؤسسة بسطرون
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩

obeikandl.com